



رحمة للعالمين

إعداد
يحيى قاسم أبو عواض



إخراج
دائرة الثقافة القرآنية

الطبعة الثالثة
١٤٤٣هـ / ٢٠٢١م

إخراج
دائرة الثقافة القرآنية

www.d-althagafhalqurania.com

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وسلم على محمد وعلى آل محمد كما سلمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين، وارض اللهم برضاك عن أصحابه الأخيار من المهاجرين والأنصار وعن سائر عبادك الصالحين.

وبعد.. فبمناسبة المولد النبوي الشريف يشرفني أن أقدم هذه المادة من محاضرات وخطابات السيد القائد عبد الملك بدر الدين الحوثي حفظه الله وأبقاه، ليتم الاستفادة منها في هذه المناسبة العظيمة.
والله الموفق.



من المهم لكل مسلم أن يسعى إلى معرفة الرسول

الحديث عن الرسول - صلوات الله عليه وعلى آله - هو حديث عن الإسلام وعن الإيمان، والعلاقة بالرسول هي علاقة إيمانية، علاقة محبة وإيمان وتعظيم وتوقير واهتداء واتباع واقتداء، ولذلك من المهم لكل مسلم أن يسعى إلى معرفة أكثر - عن هذا الرسول - صلوات الله عليه وعلى آله - عن سيرته بهذا الاعتبار الإيماني وبطبيعة هذه العلاقة الإيمانية، وكلما كانت هذه المعرفة معرفة قوية وصحيحة كلما كان لها أثرها الإيجابي في نفسية الإنسان المؤمن، في الجانب الإيماني نفسه، العلاقة الإيمانية نفسها، كلما ازدت إيماناً كلما ازدت اهتداء وتأثراً برسول الله - صلوات الله عليه وعلى آله - .

وأمتنا اليوم فيما تواجهه من تحديات، وشعوبنا العربية المسلمة، وشعوبنا الإسلامية كافة فيما تواجهه من تحديات ومخاطر، في أمس الحاجة إلى الاستفادة من تاريخها، ومن أهم ما تستفيد به من تاريخها: الاستفادة من السيرة النبوية، ومن الوقائع المهمة التي كانت في عهد النبي محمد - صلوات الله عليه وعلى آله - الأسوة والقُدوة، الذي قال الله عنه في كتابه الكريم:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ

وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب الآية: ٢١].

شعبنا يتميز بتفاعله الكبير مع ذكرى المولد

إن لشعبنا اليمني المسلم العزيز شرف التميز في تفاعله مع ذكرى المولد النبوي؛ لأنه يمن الإيمان، يمن الأنصار، وهو من جيل إلى جيل توارث هذا الإيمان، مبادئ حق يتمسك بها، وأخلاقاً كريمة يتحلّى بها، وروحاً طيبة يحملها، ومحبة وإجلالاً وتوقيراً لرسول الله - صلوات الله عليه وعلى آله - .

ولم تفلح جهود ومساعي القوى الظلامية الضالّة المخدولة في تغيير هذه السجية الطيبة، وهذا الانتماء الأصيل لهذا الشعب المسلم، كما أن معاناة شعبنا من العدوان الأمريكي السعودي الإماراتي الهمجي الظالم لن تثنيه عن الاحتفال بهذه الذكرى في كل عام؛ لأنها مناسبة تربطنا بها وشيخة الإيمان، وتزيد الأحداث والتحديات من أهميتها.

فهي مناسبة معطاء غنية بأهم الدروس والعبر التي تحتاج إليها الأمة اليوم وتستفيد منها البشرية بأكملها في تصحيح وضعها وإصلاح واقعها ومواجهة الأخطار بعد أن تفاقمت مشاكل البشرية بفعل قوى الطاغوت والاستكبار الظلامية الظالمة التي تسعى في الأرض فساداً وتملاًها ظلماً وجوراً.

الاحتفال بالمولد النبوي الشريف من أهم وسائل التعرف على هذا النبي العظيم

يمن الإيمان والحكمة يجعل من مناسبة المولد يوماً مجيداً رغم التحديات، كما في كل عام، وبكل حبٍّ وإعزازٍ وشوقٍ ولهفةٍ وإكرامٍ وتقديسٍ يحتفل شعبنا - يمنُ الإيثار والحكمة، يمنُ الأنصار، يمنُ الأوس والخزرج، يمنُ الفاتحين - بهذه المناسبة ليجعل منها يوماً أغرَّ في جبين الدهر، يوماً مجيداً، ويوماً مشهوداً، عرفاناً بالنعمة، وشكراً لله، واحتفاءً بخاتم الأنبياء، وتأكيذاً متجدداً للولاء، ورداً لكل المحاولات الشيطانية من جانب الأعداء في استنقاص مكانته في النفوس، وقدره في القلوب؛ بُغية إبعاد الناس عن التمسك به والولاء له.

وشعبنا اليمني العزيز يجعل من هذه المناسبة محطةً سنويةً لاكتساب الوعي، وشحذ الهمم، واقتباس النور، وتعزيز الولاء للرسول والرسالة، والتعبئة المعنوية ضدَّ أعداء رسول الله، أعداء الحق، أعداء البشرية.

ولهذه المناسبة العزيزة دلالاتها:

(١) الابتهاج والاعتراف بمنة الله العظيمة وفضله العظيم علينا كمسلمين

وعلى العالمين أجمع، الله - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ

وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

نحن كمسلمين، كأمة مسلمة، كمجتمع مؤمن يجب أن تكون نفوسنا متعلقة بفضل الله، تعترف لله بعظيم نعمته، وتقدر نعم الله عليها، وفي مقدمة هذه النعم: نعمة الهداية التي كانت عن طريق الرسول والقرآن، ومحمد هو رسول الهداية أرسله الله بالهدى ودين الحق؛ فمثل هذه المناسبات العزيزة الإيمانية التي لها علاقة مهمة بديننا، ونستفيد منها فيما يقربنا إلى الله: تستحق منا الفرح والابتهاج والسرور، لقد أراد لنا أعداؤنا أن يشدونا في مشاعرنا إلى مناسبات تافهة لا قيمة لها ولا أثر في واقع الأمة ويبعدونا عن مثل هذه المناسبات العظيمة، ولكنهم فشلون وخائبون وخاسرون.

(٢) إن إحياء ذكرى مولد النبي - صلوات الله عليه وعلى آله - هو مناسبة للحديث عن الرسول ومبعثه ومنهجه ورسالته، وعن واقع الأمة وتقييمه.

وهو أيضًا من الإشادة بذكره، والله - سبحانه وتعالى - حينما قرن الشهادة برسالته مع الشهادة بوحدانيته في الأذان والصلاة، كل يوم وليلة خمس مرات، وحينما قال ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ لأنه أراد أن يبقى رسول الله حيًا في وجداننا، وحاضرًا في أذهاننا.

فصلتُ بهذا النبي هي صلة بالرسالة، صلة بالهدى، وارتباط بالمنهج الإلهي، وارتباط بالرسول من موقعه في الرسالة: هاديًا وقائدًا ومعلمًا ومربيًا وقدوةً وأسوةً، نهتدي به، ونقتدي ونتأسى به، ونتأثر به، ونتبعه.

وما أعظم حاجتنا وحاجة البشرية إلى ذلك! لأنه لا نجاة ولا سعادة

لل بشرية إلا به، وإن أكبر ما جلب الشقاء والمعاناة على البشرية هو ابتعادها عن هدى الله، ومخالفتها لتوجيهاته.

(٣) التعبير عن الولاء لرسول الله محمد - صلوات الله عليه وعلي آله - هذا الجانب المهم كأساس من أساسيات الإيمان لا يتم الإيمان إلا به ولا يتحقق إلا به: الولاء لرسول الله والإيمان بولايته وتعظيمه وتوقيره والاهتداء به والاتباع له؛ لأن الله جعله لنا هاديًا، معلمًا، يزيّننا، يعلمنا الكتاب والحكمة، وجعله لنا الأسوة والقدوة فتأثر به، ونهتدي به، ونسير على نهجه، ونتأثر به، في مواقفنا، نتحرك في الطريق نفسها التي تحرك عليها، نتفاعل: طاعة، عملاً، التزامًا مع الرسالة التي أتى بها وهي القرآن الكريم والإسلام العظيم، والتعبير عن هذا الولاء له أهميته الكبيرة؛ لأن الأعداء يحاولون أن يفكّونا فكّا عن كل هذه الروابط العظيمة التي سنستعيد بها مجد أمتنا وعزة أمتنا وقوة أمتنا التي كانت أيام محمد - صلوات الله عليه وعلي آله -.

(٤) أضف إلى ذلك أن ذكرى مولد الرسول - صلوات الله عليه وعلي آله - هي مناسبة جامعة يمكن أن تمثل أساسًا مهمًا للوحدة الإسلامية، ومن خلالها يتم التذكير بالأسس الجامعة المهمة التي توحد الأمة وتبني الأمة.



مكة المكرمة

نبي الله إبراهيم ورفع قواعد البيت الحرام

نبي الله إبراهيم - عليه السلام - عندما هاجر إلى فلسطين واستقر هناك، ذهب من فلسطين بأمرٍ من الله - سبحانه وتعالى - إلى مكة، في مكة بَوَّأَ الله له مكان بيته الحرام، يعني: علَّمه مكان البيت، وهَيَّأَ له المعرفة به، والعمل فيه، ليكون هذا البيت الحرام بقدسيته العظيمة (الكعبة المشرفة بقدسيته العظيمة)، ليكون المعني بهذه المهمة في بنائه، في الدعوة للحج إليه، في القيام بأمره هو نبي الله إبراهيم - عليه السلام - ومعه أيضاً ومن بعده ابنه نبي الله إسماعيل - عليهما السلام -.

عندما وصل نبي الله إبراهيم إلى مكة المكرمة، وهَيَّأَ الله له وعَلَّمه مكان البيت، فأعاد بناءه بمعية ابنه إسماعيل - عليهما السلام -، أعاد بناءه - كما ورد في القرآن الكريم - وشيَّده، ودعا الناس للحج إليه؛ ليمثِّلَ مرتكزاً مهماً للدين الإلهي وللرسالة الإلهية، ومرتكزاً أيضاً لمرحلة آتية، مرتكزاً في وقته، ومرتكزاً في ختام الرسالة الإلهية، ولذلك كان إلى جانب بناء هذا البيت الحرام خطوة مهمة من جانب نبي الله إبراهيم هي: أنَّه أسكن من ذريته (ابنه إسماعيل - عليه السلام -) أسكنه في مكة بجوار هذا البيت، وأناط به مهمة القيام على هذا البيت معه، ثم من بعده، ثم ذريته كذلك، يقول الله

- سبحانه وتعالى - في كتابه الكريم: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ٢٦﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ [الحج: ٢٦-٢٧].

فالله - سبحانه وتعالى - أناط بإبراهيم هذه المهمة؛ ليجعل من هذا ركيزة أساسية في الدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - في ترسيخ مبدأ التوحيد لله - سبحانه وتعالى - والكلام يطول حول طبيعة هذه الركيزة الإلهية التي ارتبطت بمقدس من المقدسات: هو الكعبة البيت الحرام، والذي ارتبطت به شعائر معينة: هي فريضة الحج، وارتبطت به القبلة أيضاً للصلاة والعبادة، وجُعِلَ مثابة للناس وأمناء، ثم إلى جواره هذا الدور الذي كان ملاصقاً له، مرادفاً له، مرتبطاً به، بل معنياً به وقائماً عليه، وهو دور ابنه إسماعيل، القائم على هذا الدور ضمن الرسالة الإلهية، ولهذا استمر هذا الدور.

نبي الله إبراهيم قال - عليه السلام - كما حكا الله عنه: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٧].

فهو أسكن من ذريته من يستقر في مكة المكرمة، هذا الفرع وهذا الدور المرتبط بالبيت الحرام ارتبط به دورٌ مستقبليٌّ مهم، وأدخره الله

- سبحانه وتعالى - لهذا الدور الآتي في زمن البعثة، بعثة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد - صلوات الله عليه وعلى آله - .

إبراهيم - عليه السلام - دعا الله - جلَّ شأنه - كما يقول الله في القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٦-١٢٩].

نجد في هذه الآيات المباركة أن إبراهيم سأل من الله - سبحانه وتعالى - أن يهيئ لهذا الفرع من ذريته الظروف المعيشية التي تساعدكم على الاستقرار في تلك المنطقة غير الزراعية؛ لأنها منطقة غير زراعية، وأن تتوفر لهم الظروف التي تساعدكم على الاستقرار: على المستوى المعيشي، وعلى المستوى الأمني؛ لأنه طلب من الله أن يجعله (بلدًا آمناً)، الأمن أولاً، ثم قال: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾، ثم دعا بالرزق؛ لتوفر العوامل

المساعدة على مستوى الاستقرار الأمني، والاستقرار الاقتصادي والمعيشي التي تساعد على القيام بهذه المسؤولية - كمسؤولية - المتعلقة بهذا الدور ضمن مرتكزه المهم البيت الحرام.

طبعاً هو في طلبه من الله: طلب الرزق لمن آمن من ذريته ومن أهل هذا البلد الحرام، أن يرزقهم الله: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لكنَّ الله قال له: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾، يعني: أنه سيرزق المؤمن والكافر منهم؛ لأن هذا شيءٌ مهم في حكمة الله وتدبيره لصالح البلد الحرام والبيت الحرام وشعائر الحج، يعني مثلاً: لو كانت ظروف سكَّان هذا البلد الحرام ظروفًا اقتصادية صعبة؛ لتحولوا إلى لصوص، ونهَّابين، وقاطعين للطرق، ومرتكبين لأبشع الجرائم بحق الحجاج، ولأثر هذا على وضع الحجاج بشكل كبير جداً.

فَمِنْ أَهَمِّ مَا يُلْحَظُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمُبَارَكَةِ أَنَّ سَعَةَ الرِّزْقِ لِسَكَّانِ الْبَلَدِ الْحَرَامِ، لِسَكَّانِ مَكَّةَ، أَوْ حَتَّى لِمَا هُوَ أَوْسَعُ مِثْلَهَا يَرَى الْبَعْضُ الْيَوْمَ فِيمَا عَلَيْهِ الْوَضْعُ بِالنِّسْبَةِ لِلسُّعُودِيَّةِ أَنَّهَا بَلَدٌ مِنْ أَثَرِ بِلْدَانِ الْعَالَمِ، وَمِنْ أَغْنَى بِلْدَانِ الْعَالَمِ. هَذَا لَيْسَ شَاهِدًا عَلَى أَنَّهُمْ عَلَى خَيْرٍ، وَفِي حَقٍّ، وَعَلَى حَقٍّ، وَمِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالصَّلَاحِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ وَعَدَ بِسَعَةِ الرِّزْقِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ مِنْ سَكَّانِ ذَلِكَ الْبَلَدِ، ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾، هُوَ بِالنِّسْبَةِ لِلْسَّيِّئِ مِنْهُمْ هُوَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ، ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ﴾ فِيمَا بَعْدَهُ جَهَنَّمَ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ،
كان البناء لهذا البيت الحرام كمشروع إلهي ترتبط به هذه المبادئ العظيمة:
مبادئ التوحيد، مبادئ الإسلام لله - سبحانه وتعالى - القيم الإلهية؛ ليكون
أيضاً حاضناً للمشروع الإلهي وللرسالة الإلهية، ثم هذا الدعاء للذرية:
﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، ثم الدعاء بعد
ذلك: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾.

فكان هذا الفرع الذي أذخره الله من ذرية إبراهيم - عليه السلام - في مكة
المكرمة ليكون منوطاً بهذا الدور ضمن الرسالة الإلهية، ومدخراً للمستقبل
الأيام لتكون فيه البعثة بخاتم الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم
وهو رسول الله محمد - صلوات الله عليه وعلى آله - .

استقر إسماعيل ضمن هذا الدور، استقر هذا الفرع جيلاً بعد جيل... مع
طول الزمن، وامتداد الزمن، وتعاقب الأجيال: بدأت الانحرافات، بدأت
المتغيرات تدخل في هذا الفرع نفسه: في ذرية إسماعيل - عليه السلام - مع
أنها تكاثرت هذه الذرية إلى أن أصبحت قبيلة كبيرة، ثم تعاظمت فيها
الانحرافات والمتغيرات والسلبيات، وتأثرت بمحيطها الإقليمي والعالمي،
وكثرت فيها الانحرافات إلى أن وصلت إلى الانحراف في العقيدة، إلى
الإخلال بمبدأ التوحيد لله - سبحانه وتعالى - وصلت إلى مستوى الشرك

بالله - جلَّ شأنه - إلى أن امتلأ المسجد الحرام وامتلأت مكة بالأصنام (مئات الأصنام) إلى أن حدثت الكثير من الاختلالات على مستوى المبادئ، والقيم، والأخلاق، والانحراف على مستوى التفاصيل في الشريعة... انحرافات كبيرة؛ لأن المدة كانت الآلاف من السنوات، منذ عهد نبي الله إسماعيل إلى عهد نبي الله محمد - صلوات الله عليه وعلي آله -.

متغيرات كثيرة داخل هذا الفرع، وفي هذه البيئة، وفي هذه الركيزة الإلهية التي شابها الكثير من المؤثرات السلبية والمتغيرات السلبية، مع ذلك بقيت هي بالمقارنة مع محيطها في العالم، في المنطقة، بقيت هي البيئة الأنسب، والبيئة الأفضل، والبيئة المهيأة والمدخرة لتكون انطلاقة الرسالة الإلهية الخاتمة منها.^(١)

حالة العالم قبل مولد الرسول

قبل مبعث الرسول - صلوات الله عليه وعلي آله - كان العالم بكله بشتى أنحاء الأرض يعيش جاهلية جهلاء تعاظم فيها الضلال، واشتد العمى، وطغت الحيرة والتهيه، واستحكمت فيها هيمنة القوى المستكبرة بقوتها وجبروتها تضلل وتظلم.

وتضاءلت في الأرض دائرة النور وأطبق عليها الظلام: ظلام الجهل

(١) من المحاضرة الأولى للهجرة النبوية لعام ١٤٤١ هـ للسيد القائد عبد الملك بدر الدين الحوثي رضوان الله عليه.

بالحق والحقيقة، وظلام الخرافة، وظلام الباطل، وظلام الفساد، وامتألت ظلماً وجوراً وعدواناً، وفقدت البشرية الوعي بهدف وجودها المقدس ومسؤوليتها في الحياة، وأصبح الإنسان تائهاً لا يعي دوره ولا يحمل من اهتمام إلا أن يأكل ليعيش وأن يعيش ليأكل كالأنعام السائمة.

وتمكن المجرمون المستكبرون المتسلطون الجائرون أن يجعلوا من الخرافة عقيدة، ومن الانحراف والفساد سلوكاً وعادة، ومن الجهالات والأباطيل عادات وتقاليد، وحرّموا حلال الله وأحلوا حرامه، وأشركوا به، وبلغوا بإضلالهم لعباد الله وتوحشهم إلى تفرغ الإنسان من عاطفته الإنسانية ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْذُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧] أوصلوهم إلى أن يياشر الأب ذبح طفله وقتل مولودته إما خوفاً من الفقر أو احتساباً لها منقصة، وتحولت كل تلك الخرافات والمفاسد والجهالات إلى معتقدات يقدسونها ويدينون بها ويتشبثون بها أشد تشبث، وعادات يتعصبون لها تطبعت عليها أجيال، يموت عليها جيل ويحيا عليها جيل آخر، وطغت على حياة الناس واستحكمت وتمكنت حتى أصبحت مسلمات وثوابت مع كل ما ترتب عليها ونشأ من خلالها من نتائج سيئة في واقع الحياة: من عناء وشقاء وقهر وظلم، وشتات وفرقة، وتناحر وبؤس وضعة.

ومع حاجة المجتمع البشري إلى التغيير إلا أنها مهمة لن تكون سهلة تجاه واقع وصل إلى هذا الحد، وفيه قوى الطاغوت تحمي وترعى ذلك

الانحراف وتزويد منه، ومعالم رسالة الله تعالى في الأنبياء والرسل السابقين انمحت معالمها في منتسبها؛ فأضاعت اليهود معالم رسالة الله تعالى إلى موسى وأنبياء بني إسرائيل، وأضاعت النصارى ميراث عيسى من الهدى والأخلاق، ولم يتبقّ للجميع إلا طقوس وشكليات مفرغة من كل معنى، وفاقدة لأي تأثير، وأصبحوا جزءاً من الواقع لا صالحين ولا مصلحين، بل منحرفين ومحرفين، ضالين ومضلين، فاسدين ومفسدين.

وحولوا كتب الله إلى قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً منها، وحولوها إلى عبارات مكتوبة معطلة عن التنفيذ، وموقفة عن الاهتداء بها والعمل بها فيها، وحرفوها سعيًا منهم إلى تحويلها إلى وسائل للتضليل بها والافتراء على الله الكذب باسمها، فضلوا وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل.

محاولة هدم البيت الحرام:

في ذروة استحكام قبضة الطاغوت وسيطرة المستكبرين تحرك أصحاب الفيل؛ بهدف القضاء على ما يعتبرونه تهديدًا مستقبليًا؛ فالآثار والأخبار والمؤشرات قد عرفوا منها أن مبعث النور والخلاص آتٍ بقدم خاتم الأنبياء من مكة البيت الحرام في ذلك العام، فتحركوا بجيشهم، يريدون السيطرة المباشرة ووأد المشروع الإلهي في مهده، والقضاء على الرسالة الإلهية، تما كما فعل فرعون في سعيه للحيلولة دون المشيئة الإلهية في أمر موسى - عليه السلام - ففشل وخاب.

ويسعون أيضًا إلى هدم الكعبة بيت الله الحرام المقدس ومعلم الشعائر الدينية والرمز المتبقي في اجتماع كلمة العرب آنذاك على تقديسه، مع اختلافهم في كل أمورهم الأخرى، وفي مقدمة جيشهم اصطحبوا فيلاً ليرعبوا به العرب ويخيفوهم بهذا الكائن غير المألوف لديهم والحيوان الكبير الذي رأى فيه الكثير أنه أمر لا يقاوم.

ومع قداسة البيت الحرام لدى العرب التي توارثوها من عهد نبي الله إبراهيم الخليل وابنه نبي الله إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، وارتباطهم بشعائر الحج إلا أنهم نتيجة للفرقة والاختلاف والشتات الذي كانوا فيه، والمفاهيم الظلامية التي سيطرت على تفكيرهم ورؤيتهم على الأمور، والخلل الذي كانوا يعانون منه في كل واقعهم، وفقدانهم الأمل في الله تعالى لم يتحركوا بجديّة في مواجهة أصحاب الفيل، وغلبت عليهم الهزيمة واليأس وهربوا من المواجهة وقالوا في الأخير: (لبيت رب يحميه)، فحمى الله بيته الحرام، وأنفذ مشيئته بقدوم المولود المبارك محمد صلوات الله عليه وعلى آله

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

أما أصحاب الفيل فأهلكهم، وأما كيدهم ومكرهم فبطل وضل وانتهى ولم يتحقق لهم ما أرادوا، فمشيئة الله تعالى ورحمته بعباده أتت بالخلاص وبالفرج بعد أن بلغ الضلال ذروته، واستحكمت سيطرة الطاغوت والاستكبار في كل أقطار الدنيا، وملأت بظلامها قلوب البشرية فأعمت بصائرهم، وطغت بظلمها على واقعهم فأشقت حياتهم.

لقد كان مولد رسول الله - صلوات الله عليه وعلي آله - في عام الفيل (تلك الحادثة العجيبة) وكان للحادثة بنفسها علاقة بإرهاصات القدوم المبارك لخاتم الأنبياء محمد صلوات الله عليه وعلي آله^(١).

رحلة مع الرسول والرسالة

اعتاد المؤرخون وأصحاب السير أن يتحدثوا في السيرة النبوية وأن يُفصّلوا المراحل إلى ثلاث مراحل:

- المرحلة الأولى: ما قبل البعثة: منذ الولادة إلى حين البعثة بالرسالة.
- المرحلة الثانية: منذ البعثة بالرسالة إلى حين الهجرة، وهذا يسمى بالعهد المكي.

- المرحلة الثالثة: منذ الهجرة إلى حين الوفاة، وهذا يسمى بالعهد المدني.
وسوف نتناول كل مرحلة من المراحل باختصار شديد مُركّزين على بعض المحطات المهمة، ثم نختم هذه الرحلة بالدروس والعبر التي نستفيد منها في هذه المرحلة ونحن في مواجهة شاملة مع الجاهلية الأخرى بقيادة أمريكا وإسرائيل ومنافقي العرب، هذه الجاهلية التي هي كما قال الرسول - صلوات الله عليه وعلي آله -: ((بُعِثَ بَيْنَ جَاهِلِيَّتَيْنِ أَخْرَاهُمَا شَرًّا مِنْ أَوْلَاهُمَا)).

(١) من خطاب المولد ١٤٣٨هـ للسيد القائد عبد الملك بدر الدين الحوثي رضوان الله عليه.

المرحلة الأولى: من الولادة حتى البعثة بالرسالة

المولد المبارك

رسول الله - صلوات الله عليه وعلى آله - كما أشرنا ولد في عام الفيل، وكانت حادثة أصحاب الفيل أول وأكبر الإرهاصات المهمة لهذا القدوم المبارك والميمون، والذي سيحدث الله به أكبر عملية تغيير في الواقع العالمي، ولم تطل الفترة ما بعد حادثة أصحاب الفيل الذين أبادهم الله - سبحانه وتعالى - كما قص قصتهم في القرآن الكريم حينما قال - جلَّ شأنه -:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ
 ١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ٣
 تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ٥﴾ [الفيل].

البعض يقدر المدة الزمنية بليلة، البعض بليلتين، البعض بـ ٤٠ يومًا، مسألة ليست مهمة جدًا: معرفة متى بالتحديد، فمن الواضح أنه في بداية ذلك العام ولم تكن الفترة الزمنية قد طالت إلى حين ولادة رسول الله - صلوات الله عليه وعلى آله -.

نسبه الشريف:

رسول الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم من نسل نبي الله إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن ونبيه، ولد في مكة، في شعب بني

هاشم، ولدته أمه (آمنة) الشريفة، وآمنة هذه كانت سيدة نساء قريش ولها منزلتها الكبيرة فيما عُرِفَتْ به من طهارة وعفة وصلاح، وكذلك أسرتها بني زهرة، حي من أفضل أحياء العرب، ومن خيرة أحياء قريش.

فآمنة بنت وهب ولدته كما في كثير من الروايات والأخبار، وكما هو شبه مجمع عليه عند أكبر المؤرخين وأصحاب السير في شهر ربيع الأول، الأكثر على أن ولادته - صلوات الله عليه وعلى آله - في الـ ١٢ من شهر ربيع الأول، وهذا القول يقول به أكثر المؤرخين وأصحاب السير من معظم المذاهب الإسلامية.

وبالعوض منهم ذهبوا إلى أنه ولد يوم الجمعة في السابع عشر من شهر ربيع الأول، كذلك الخلاف حول هذه المسألة ليس مهمًّا.

نحن جرت عادتنا وتوجهنا في بلدنا هذا اليمن على مدى التاريخ، على مدى الزمن الماضي بكله، على الاحتفاء بذكرى المولد النبوي في يوم الـ ١٢ باعتباره التاريخ المعتمد لدينا ولدى علمائنا ولدى مؤرخينا وأصحاب السير لدينا.

والعناية بهذه الذكرى في الماضي كانت تشهد نشاطاً خيرياً يكون فيه اهتمام بالإحسان إلى الناس وصلة الأرحام وما إلى ذلك، وهذه عادة حسنة يجب الاستمرار عليها.

إضافة إلى الحديث عن المولد والتذكير بالرسول - صلوات الله عليه وعلى

آله -، والإكثار من الصلاة عليه والعناية أيضًا بالحديث عن سيرته، العناية أيضًا بالإشادة بذكوره والتعظيم لأمره؛ كل هذا له أهمية وقيمة عظيمة في الإسلام، وأهمية كبيرة بالنسبة للإنسان المسلم فيما تعززه من علاقة وروابط قوية بنبي الإسلام.

النشأة المباركة:

الرسول - صلوات الله عليه وعلي آله - عندما ولد نشأ يتيمًا: يتيم الأب، توفي والده: البعض يقولون أثناء الحمل به، والبعض يقولون بعد ولادته بشهرين، ولكن الكل مجمع على أنه نشأ يتيم الأب، وبعد ولادته بُشِّر به جده عبد المطلب، وعبد المطلب كان له شأن كبير، كان له تأثير على مستوى المنطقة العربية بأكملها ويُعظم ويُحترم، وكذلك في مكة هو سيد قريش، وكان على حنيفة إبراهيم - عليه السلام - كما يؤثر ويروى - موحدًا لله - سبحانه وتعالى -، وكان له العناية بحفر بئر زمزم بعد أن كانت قد طمّت منذ فترة تاريخية طويلة، واستخراج مائها من جديد، وعناية كبيرة بشؤون الحج ومكة، وما إلى ذلك.

(روى ابن إسحاق في تاريخه: بينما عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف نائمًا في الحجر، عند الكعبة، أتته فأمير بحفر زمزم.

ويقال إنها لم تزل دفينًا بعد ولاية بني إسماعيل الأكبر وجُرّهم، حتى أمر بها عبد المطلب، فخرج عبد المطلب إلى قريش، فقال: يا معشر قريش،

إنسي قد أمرت أن أحفر زمزم، فقالوا له: أبين لك أين هي؟ فقال: لا، قالوا: فارجع إلى مضجعك الذي أُرِيت فيه ما أُرِيت، فإن كان حقاً من الله عز وجل بين لك، وإن كان من الشيطان لم يعد إليك، فرجع فنام في مضجعه، فأُتِيَ ف قيل له: احفر زمزم، إنك إن حفرتها لم تندم، هي تراث من أبائك الأقدم.

فقال حين قيل له ذلك: أين هي؟ ف قيل له: عند قرية النمل، حيث ينقر الغراب غداً، فغدا عبد المطلب ومعه الحارث ابنه، ليس له ولد غيره، فوجد قرية النمل، ووجد الغراب ينقر عندها، بين الوثنيين: إساف ونائلة، اللذين كانت قریش تنحر عندهما).

عبد المطلب وانتظاره لهذا المولود:

عبد المطلب عندما بُشِّر بهذا المولود الجديد كان على انتظار لهذا الموعد، وكان كما يبدو من كثير من الأخبار والآثار، كان مؤملاً ومستبشراً في هذا المولود باعتبار أن هناك مؤشرات، والبعض كانوا تحدثوا إليه، كانوا يرون فيه علامات تدل على أنه من نسله من سيكون له شأن عظيم بأن يجعله الله - سبحانه وتعالى - خاتم الأنبياء، فلربما كان توقعه إلى هذا المستوى أن يكون هذا المولود هو النبي الموعود، أو بالحد الأدنى أن لهذا المولود شأنًا عظيمًا وكبيرًا جدًا لا اعتبارات وعلامات وإرهاصات.

(روى اليعقوبي في تاريخه الجزء الثاني الصفحة ٧ قال:

كان عبد المطلب جد رسول الله سيد قريش غير مدافع، قد أعطاه الله من الشرف ما لم يعط أحداً، وسقاه زمزم وذا الهرم، وحكمته قريش في أموالها، وأطعم في المحل حتى أطعم الطير والوحوش في الجبال.
قال أبو طالب:

ونطعم حتى تأكل الطير فضلنا إذا جعلت أيد المفيضين ترعد
ورفض عبادة الاصنام ووحيد الله عز وجل، ووفى بالنذر، وسن سنناً
نزل القرآن بأكثرها، وجاءت السنة من رسول الله بها وهي: الوفاء بالندور،
ومائة من الإبل في الدية، وألا تنكح ذات محرم، ولا تؤتى البيوت من
ظهورها، وقطع يد السارق، والنهي عن قتل الموءودة، والمباهلة، وتحريم
الخمير، وتحريم الزنا، والحد عليه، والقرعة، وألا يطوف أحد بالبيت
عرياناً، وإضافة الضيف، وألا ينفقوا إذا حجوا إلا من طيب أموالهم،
وتعظيم الأشهر الحرم، ونفي ذوات الرايات.

ولما قدم صاحب الفيل خرجت قريش من الحرم فارة من أصحاب
الفيل، فقال عبد المطلب: والله لا أخرج من حرم الله وأبتغي العز في غيره.
فجلس بفناء البيت ثم قال:

لهمَّ إن تعف فإنهم عيالك وإلا فشيء ما بدا لك

فكانت قريش تقول: عبد المطلب إبراهيم الثاني.

وكان المبشر لقريش بما فعل الله بأصحاب الفيل عبد الله بن عبد المطلب
أبو رسول الله.

فقال عبد المطلب: قد جاءكم عبد الله بشيرا ونذيرا.

فأخبرهم بما نزل بأصحاب الفيل.

فقالوا: إنك كنت لعظيم البركة لميمون الطائر منذ كنت.

وكان يفرش لعبد المطلب بفناء الكعبة، فلا يقرب فراشه حتى يأتي
رسول الله، وهو غلام، فيتخطى رقاب عمومته، فيقول لهم عبد المطلب:
دعوا ابني، إن لابني هذا لشأناً.

كان عبد المطلب قد وفد على سيف بن ذي يزن مع جلة قومه لما غلب
على اليمن، فقدمه سيف عليهم جميعاً وآثره.

ثم خلا به فبشره برسول الله ووصف له صفته، فكبر عبد المطلب وعرف
صدق ما قال سيف، ثم خر ساجداً.

فقال له سيف: هل أحسست لما قلت نبأ؟ فقال له: نعم! ولد لابني غلام
على مثال ما وصفت أيها الملك.

قال: فاحذر عليه اليهود وقومك، وقومك أشد من اليهود، والله متمم
أمره ومعلٍ دعوته.

وكان أصحاب الكتاب لا يزالون يقولون لعبد المطلب في رسول الله
منذ ولد فيعظم بذلك ابتهاج عبد المطلب).

سنة الله مع أنبيائه:

وسنة الله - جلد سائنه - مع أنبيائه أن يحيطهم فيما قبل ولادتهم وأثناء ولادتهم وأثناء نشأتهم بوضع خاص وعناية خاصة تهئ لهم دورهم المستقبلي العظيم والكبير.

عندما مثلاً نقرأ في القرآن الكريم عن ولادة عيسى - عليه السلام -، ولادة موسى - عليه السلام -، نشأة إبراهيم، إلى غير ذلك، الكل أحيط بعناية خاصة، موسى - عليه السلام - أحيط بعناية خاصة، وأوحى الله إلى والدته في ترتيبات لضمان حمايته من القتل إلى غير ذلك، أعلمت وأخبرت أمه من الله - سبحانه وتعالى - بأن مولودها هذا رسول ونبى عظيم، ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، أخبرت أمه بذلك، أخبرها الله، أوحى إليها، الملائكة أيضاً في قصة عيسى - عليه السلام -، تخاطبت مع والدته مريم الصديقة - عليها السلام -، كلمتها الملائكة، وحدثتها، وبشّرتها بأن الله سيجعل لك هذا الولد معجزة بولادته من غير أب، وسيكون له شأن عظيم، وهو رسول من الله ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران]، ابنك هذا هو كذا وكذا وله شأن عظيم.

فبالتأكيد يحاطون بعلامات وأحياناً بأكثر من مسألة العلامات كما في قصة موسى وعيسى بوحي مباشر وخطاب صريح وواضح، كما تحدثت

الملائكة مع مريم، وكما أوحى الله - سبحانه وتعالى - وحيًا مؤكدًا وحقيقياً إلى أم موسى - عليه السلام - : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: ٧].

فهذه العلامات التي أحيطت بما قبل ولادة النبي وحين ولادته، وقالوا أنه لوحظ عدة إرهاصات - تسمى بحسب التعبير في السير إرهابات - أي: علامات ممهدة ومهيئة في الذهنية العامة أن هذا المولود القادم له شأن خاص، له دور مهم، له شأن عظيم، له دور كبير، تهیی حتى في الذهن، هذه حكمة من الله ورحمة من الله، والله أحكم الحاكمين، لا تأتي النبوة فجأة بدون أن يكون هناك أي مقدمات ولا تمهيد ولا اعتبار ولا أي شيء، لا، يكون هناك تميز، اعتبارات كثيرة تساعد الناس على التقبل وتقيم الحجة عليهم في نفس الوقت.

الرعاية التي أحيط بها الرسول:

عبد المطلب ذهب مستبشراً وفرحاً وأخذ هذا الطفل المولود، وذهب به إلى الكعبة تبركاً وتيمناً وتقرباً إلى الله - سبحانه وتعالى - بالدعاء هناك، وحمد الله؛ لأن هذه نعمة كبيرة عليه، أن يرزقه الله بحفيد سيكون خاتم الأنبياء، وسيكون سيد الرسل، وسيكون أعظم وأكمل وأرقى إنسان وُجد في البشرية منذ آدم إلى نهاية البشرية، هذا شرف كبير، حمد الله واستعاذ بالله على هذا المولود من كل الحاقدين والحاسدين في أبيات شعرية تذكر في السير.

روى أبو العباس في المصابيح (ج ١ ص ١١٦) بأنه لما ولد الرسول صلوات الله عليه وعلي آله أخذه عبد المطلب فأدخله في جوف الكعبة، فقام عبد المطلب يدعوه ويشكر الله عز وجل ويقول:

الحمدُ لله الذي أعطاني هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد في المهد على الغلمان أعيذه بالواحد المنان
من كل ذي غيٍ وذو شنان حتى أراه شامخ البنيان

واعتنى به جده عبد المطلب عناية كبيرة من حيث التربية والاهتمام والتفقد والرعاية، وهذه أيضا نعمة من الله، من الأشياء المهمة أنه ينبغي أن لا يغيب في الذهنية، ولا في الحديث ربط كل هذه الرعاية التي أحيط بها رسول الله - صلوات الله عليه وعلي آله - بالله - سبحانه وتعالى -، أنها رعاية من الله، وأنها رحمة من الله، وأنها كذلك نعمة من الله - سبحانه وتعالى - ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى: ٦].

الله هو الذي آواه، الله هو الذي هيا له جدًّا بمثل شخصية عبد المطلب فيما كان عليه من رشد ونضج وفكر وسمو وشرف ومنزلة رفيعة واهتمام كبير، يُقدَّر هذا الطفل، يقدر هذا المولود، يدرك عظمة وأهمية هذا المولود، وفعلاً التاريخ يحكي كيف كان عبد المطلب يتعامل مع هذا الطفل في طفولته المبكرة؛ لأن رسول الله - صلوات الله عليه وعلي آله - حينما بلغ عمره ٦ سنين، أيضاً توفيت والدته، فأصبح يتيمًا من جهة الأبوين الأب والأم، لكن بقي يحظى بهذه العناية الكبيرة جدًّا من جده عبد المطلب.

فاطمة بنت أسد ودورها العظيم:

قامت فاطمة بنت أسد بدور كبير في العناية برسول الله - صلوات الله عليه وعلى آله - في مرحلة طفولته المبكرة (فاطمة بنت أسد) زوجة أبي طالب، قال عنها - صلوات الله عليه وعلى آله -: **((إنها أُمِّي))**، كان يعتبرها كأمه فيها أولته من عناية ورعاية واهتمام في طفولته.

هاجرت فاطمة بنت أسد إلى المدينة وتوفيت بها، ويروى عن رسول الله لما توفيت أنه قال: **((اليوم ماتت أُمِّي))**، وكفنها رسول الله - صلوات الله عليه وعلى آله - بقميصه، فقليل له: يا رسول الله، لقد اشتد جزعك على فاطمة، فقال: **((إنها كانت أُمِّي إن كانت لتجيع صبيانها وتشبعني، وتسعثهم وتدهنني، وكانت أُمِّي))**.

فالله يهيئ لأتباعه ورسله رعاية خاصة وعناية كبيرة تساعد على تأهيلهم نفسياً ومعنوياً ومن كل الجوانب بالدور الكبير والمسؤولية الكبيرة التي سيتحملونها في المستقبل.

عندما كان رسول الله - صلوات الله عليه وعلى آله - في طفولته ما بعد الست سنوات، كان يعتني به جده عبد المطلب عناية كبيرة جداً وكان يدينه ويقربه ويكرمه لدرجة ملفته، كان يأتي رسول الله في طفولته المبكرة إلى جده عبد المطلب وهو بفناء الكعبة وقد فرّش له هناك، وكان لا يفرش لغيره، لكن لشأنه ومكانته الكبيرة، فيأتي ليجلس مباشرة لجواره أو في حضنه فيذهب

أعمامه ليأخذوه، فيقول: «دعوه، دعوا ابني فوالله إن له لشأنا»، يتوسم فيه أن له شأن عظيم، كذلك رُويت أخبار ورؤى كان يراها عبد المطلب في منامه تبشر بهذا الدور الكبير والعظيم لهذا الطفل الناشئ.

وفاة جده عبد المطلب وكفالة أبي طالب:

توفي جده عبد المطلب وكان يسمى بشيبة الحمد، وكان محط ثناء وإعجاب فيما كان عليه من قيم وشأن كبير في مكة، ولرسول الله - صلوات الله عليه وعلى آله - من العمر ثمان سنوات عندما توفي جده عبد المطلب، وعهد عبد المطلب - بعد حتى تشاوره مع هذا الطفل الصغير - بكفالته إلى (أبي طالب)، أبو طالب هو عم النبي شقيق والده؛ لأن عبد المطلب كان له عشرة أبناء أو أحد عشر ابناً كما في بعض الأخبار والآثار.

فعبد المطلب كان له هؤلاء الأبناء على أمهات متعددة، فكان أبو طالب وعبد الله شقيقان من أم واحدة كلاهما أولاد عبد المطلب من أم واحدة، عبد الله وأبي طالب، وكان أبو طالب خير أولاد عبد المطلب، وأرشداهم، وأفضلهم، وأكملهم، وأعلاهم مكانة وقدرًا ومنزلةً، والمؤهل لخلافة والده في الدور والمكانة في مكة المكرمة، وفي قريش.

واعتنى أبو طالب بكل ما يمتلكه من اهتمام ومن تعلق وجداني كبير بهذا المولود المبارك، بهذا الطفل الميمون، عني به عناية كبيرة، بل إنه هو وزوجته فاطمة بنت أسد: أوليا رسول الله - صلوات الله عليه وعلى آله - من الاهتمام

الكبير جدًا ما يفوق بكل حال عنايتهما بأبنائهما، عناية خاصة واهتمام كبير. هناك اهتمام كبير سبق ذلك بتوصيات أساسية ومؤكدة من عبد المطلب نفسه إلى أبي طالب، وهناك أيضًا إدراك لأهمية المسألة من أبي طالب، وحاله كحال أبيه عبد المطلب في النظرة المتميزة إلى هذا المولود المبارك، إلى هذا الطفل الميمون، وعن دوره المستقبلي العظيم الذي تشهد له الكثير من الأمارات والدلائل والآيات المهمة جدًا، والمؤشرات العظيمة جدًا، فعني عناية كبيرة، وكان بينه علاقة حميمة ما بينه وبين ابن أخيه محمد - صلوات الله عليه وعلي آله - .

ما حظي به رسول الله من الرعاية

الرعاية الإلهية التي هيأها الله لنبيه

رسول الله (صلوات الله عليه وعلي آله) نشأ في هذا الجو من الرعاية ومن الاهتمام ومن العناية، وهذه ظروف هيأها الله، من الله - سبحانه وتعالى - أن يهيئ له هذا الجو، وأن يحفه بأولئك الذين أولوه كل هذه الرعاية والاهتمام والحنو والعاطفة، وعوضوه عن فقدان أبيه وأمه في يتمه؛ فكانت رعاية من الله ورحمة من الله ونعمة من الله وتهيئة إلهية من الله - سبحانه وتعالى - .

نشأ نشأة مباركة، أنبته الله نباتًا حسنًا، ونشأة متميزة فكان سريع النمو، وكان أيضًا ذا نضج عجيب، كان ينشأ: يكبر ويكبر معه رشد وفهمه،

تميزه، حسن إدراكه، أدبه، وكان ملفتا فيه هذه النشأة المتميزة من حيث النمو السليم والمبارك، بركة في نموه، يكبر وينشأ نشأة مميزة، وفي نفس الوقت بنضج كبير وعجيب في الإدراك، وفي الفهم، وفي حسن التصرف.

ولم يكن حاله كحال بقية الصبيان في عبثهم، وفي لهوهم، وفي نقص الجانب الأخلاقي لديهم، مثلاً: في التعري أو في أي شيء، لا، كان متميزاً، كان ملحوظاً فيه الحرص على الطهارة، الحرص على صيانة النفس، البعد عن بعض الأشياء التي تنم عن قلة الأدب وعن ضعف الإدراك لدى الصغار والصبيان؛ فكان مختلفاً عن كل الصبيان وعن كل الصغار، نشأة مميزة وتنم عن أدب عال وراق وأنه محفوف من الله بتنشئة خاصة، ولديه في نفسه قابلية أودعها الله فيه - جلَّ شأنه -: قابلية عالية.

الإمام علي - عليه السلام - يحكي لنا في نص مهم وعظيم قال: (وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ (صلوات الله عليه وعلى آله) مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ وَمَحَاسِنِ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ لَيْلَهُ وَنَهَارُهُ) فالله - سبحانه وتعالى - لم يتركه ليكون صنعة البيئة الجاهلية التي قد تؤثر سلباً في الإنسان، أو - كذلك - أن يكله إلى تربية الناس بكل ما فيها من القصور تجاه دور ومستقبل كبير وعظيم، تجاه مسؤولية كبيرة وعظيمة جداً، تجاه مستوى من المطلوب أن يصل إليه هذا القادم ليكون هو في الذروة بين كل البشر، يبلغ إلى حيث لم يبلغ إليه بشر ولم يصل إليه

بشر من الكمال الإنساني؛ فالرسول - صلوات الله عليه وعلي آله - حظي بهذه الرعاية الإلهية فنشأ نشأة مباركة، وأنبتته الله نباتًا حسنًا.

في مرحلة شبابه

في مرحلة الشباب، في بداية الشباب كذلك، كان متميزًا ولم يتأثر بكل تلك البيئة الجاهلية في مكة وفي غير مكة، فلم يسجد لصنم قط، ولم يدس نفسه بأي من دنس الجاهلية، كان الوضع في الجاهلية فوضى شاملة، المفسد الأخلاقي، العُري، التصرفات الباطلة والسيئة، البغي، التظالم، الانحطاط الأخلاقي، سلبات كثيرة جدًا كانت قائمة، حالة من الانفلات وغير الالتزام والانضباط لا لشرع ولا لدين ولا لملة، فوضى قائمة، فكان بعيدًا عن التأثير بذلك الجو العام، وقليل من الناس من يكونون على هذا النحو: لا يتأثر بجو وبيئة عامة وطاغية في بلده في منطقته بين قومه لكنه نشأ نشأة مختلفة، ولو حظ فيه أنه لم يكن منسجمًا أبدًا مع ذلك الجو العام.

كان كثير الخلوة والاعتزال، وقليل الاندماج والاختلاط بالناس في بيئتهم تلك، في ظروفهم تلك، سيما المناسبات السيئة التي تشوبها المنكرات، كان كثير الابتعاد أو يبتعد دائمًا عنها، والابتعاد عن الناس بشكل عام في أكثر ما هم فيه نتيجة لهذا الجو السلبي المشحون والممتلئ بالسلبات والمنكرات والفساد، وعُرف عنه كثرة التأمل، وعُرف عنه النضج والرشد

والحكمة والصواب فكانوا ينظرون إليه بأنه الإنسان الحكيم الذي لا نظير له في حكمته وإصابته وإصابة رأيه.

الصادق الأمين:

عُرف أيضًا بمصداقيته التي لا نظير لها، وأمانته التي لا مثيل لها، فكانوا يسمونه بـ«الصادق الأمين» وكان له في مكة نفسها هذا التميز الملحوظ، الكل ينظرون إليه بإعجاب وبأنه شخص متميز عن كل الناس فيقولون جاءكم الصادق الأمين، له مهابة إذا شاهده الإنسان مقبلاً يشاهد عليه الوقار والهيبة، وإذا جالسه الإنسان أحبه لأخلاقه الراقية، وقار من دون تكبرٍ، وهيبة من دون عُجب أو غرور أو استعلاء على الناس أبداً.

فنشأ نشأة طيبة ومباركة وتنامت فيه كل المؤهلات القيادية، تعززت فيه مكارم الأخلاق، وكان من الواضح فيه ألمه الكبير على الناس، على الواقع القائم، عدم رضاه وعدم اندماجه وعدم انسجامه مع ذلك الواقع؛ لأن الكثير من الناس يتأقلم: أي واقع في أي منطقة أو في أي ظرف يعيش ويندمج معه، يندمج مع أي واقع ويتأقلم، لم يتأقلم رسول الله مع ذلك الواقع الجاهلي ولم ينسجم معه، ولم يذب أو يتلاشى في أخلاقه وتصرفاته ضمن ذلك الواقع، بقي يعيش حالة الغربة من هذا الجانب: أن يرى المجتمع البشري من حوله وهو غارق في ظلمات الجاهلية ورجسها وذنسها، وكان يتعبد الله على ملة إبراهيم - عليه السلام - وموحداً لله - سبحانه وتعالى - . هذا ما كان عليه إلى أن ابتعثه الله بالرسالة.

زواجه من خديجة:

في مرحلة معينة من حياته عندما بلغ حسب الروايات سن الخامسة والعشرين من عمره الشريف قرر الزواج وتزوج بالصديقة الطاهرة (خديجة) رضوان الله عليها، خديجة بنت خويلد كان لها شأن كبير وعظيم عند الله - سبحانه وتعالى -، والزواج بها كذلك وراءه الرعاية الإلهية والاختيار الإلهي، وراءه رعاية الله وعنايته بهذا الشاب المبارك، اختار الله له تلك الزوجة لتكون إلى جانبه مؤمنةً به مصدقةً وسندًا، وليكون معها أول نواة للإسلام وأول أسرة مؤمنة، وإلى جانبهم الإمام علي - عليه السلام - الذي عاش عند رسول الله وتربى عند رسول الله - صلوات الله عليه وعلي آله -.

تحكي السير والروايات والأخبار أن رسول الله اشترك مع خديجة - وكانت ذات ثروة ومال - في نشاط تجاري بالشراكة بالمضاربة، وأن هذا العمل زاد من معرفتها به، فعرفت عن مكارم أخلاقه وشمائله إضافة إلى ما هو معروف به أصلًا في مكة المكرمة؛ فقررت الزواج به، وكان اقترانها به وهي كذلك مثلما كان هو في الخامسة والعشرين كانت على حسب روايات مختلفة ما بين الرابعة والعشرين إلى السابعة والعشرين، ما يقارب هذا العمر.

وليس بصحيح ما تذكره بعض الروايات أنها كانت طاعة في السن وأن الفارق ما بين عمرها وعمره كان كبيرًا جدًا وأنها توفيت بعد خمسة عشر

عامًا وهي في الستين من العمر وهو في نضج الشباب وكماله، هذا غير صحيح أبدًا.

روايات بعض الجهالة لهم فيها مآرب مذهبية؛ لكن سخيصة! فبعض المشاكل المذهبية أثرت عليهم لدرجة غير لائقة أبدًا، دخلوا في أشياء ومشاكل حتى في القضايا الأسرية لرسول الله صلوات الله عليه وعليه (يكبرون البعض بشكل كبير ويصغرون البعض الآخر، يقولون: تزوج بخديجة وهي طاعة في السن (عجوز)، وعائشة تزوجها وهي طفلة صغيرة جدًا لا تزال تلعب مع البنات فتؤخذ من بينهن وتُزف إلى بيت رسول الله - صلوات الله عليه وعليه آله-) تفاصيل وأطروحات غير مؤدبة وغير طبيعية حتى في الحالة البشرية والمألوفة لدى البشر والشيء الفطري لدى البشر.

رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ما بعد اقترانه بخديجة وزواجه المبارك منها تأمن له استقرار في حياته، وهي قدمت نفسها وثروتها وما تملك في خدمة رسول الله، وعرفت بفضله وعرفت بمكانته وعرفت بقدره وقيمه وأعزته ولم تتعامل فقط معه كزوج عادي ترتبط به ارتباطًا عاديًا.. لا، عرفت أن له شأنًا عظيمًا وأهمية كبيرة ومستقبلًا مهمًا؛ فكان لها إسهام كبير، وأمنت للرسول فرصة لأن يكون له أوقات للعبادة، وأوقات للخلة، وأوقات للتأمل.

كان رسول الله كثير التأمل في الكون:

وكان كثير التأمل في الكون والعالم ليس ليعرف هل هناك رب وهو الله أم لا، هذا معروف لديه، هذا كان معروف حتى لدى المشركين: المشركين، كل العرب كانوا يقرون بالله ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩] ما كانت مسألة الله مجهولة لدى العرب وكانوا يستغربون إذا قال أحد الله فيقولون من هو الله؟ ما هذا الكلام؟ لا، هذا طرح ضعيف جداً لبعض الكتاب والمؤرخين، ونشاهده في كثير من المسلسلات التاريخية والسير التي توثق عن السيرة (جهل كبير).

وبالعوض يقولون هكذا: أن رسول الله أمضى تلك الفترة يبحث هل هناك أحد اسمه الله أو خالق للسموات والأرض؟! لا، هذه مسألة كانت قائمة في الأساس وموجودة وفطرية ومتوارثة بعد الأنبياء؛ لم يكن هذا الموضوع هو الهدف الرئيسي لخلواته وتأملاته، هذه خلوات وتأملات يزداد فيها ارتقاء وإيماناً ومعرفة بالله - سبحانه وتعالى - وليس بأصل وجوده، هو يعرف هذا.

ثم في الواقع من حوله بالتأكيد كان يفكر كثيراً في الواقع البشري والحالة القائمة في أوساط الناس وأهمية تغيير هذا الواقع وما يتطلبه تغيير

هذا الواقع، ولم يكن هذا غائبًا عن نفسيته وعن ذهنيته وعن اهتمامه وهو الممتعض من ذلك الواقع وغير المنسجم معه نهائيًا فكان أيضًا يجاور بغار حراء (كهف هناك في أحد الجبال في مكة) طيلة شهر رمضان المبارك، يجلس بشكل تام طيلة الشهر في ذلك الكهف يجاور لوحده، ينفرد بالعبادة.

ويقوم بخدمته في تلك الفترة: الإمام علي - عليه السلام - وهو في مرحلة الطفولة، ويستمر على هذا الحال فترة طويلة من الخلوة، من التأمل، من العبادة، من الاهتمام والتعامل والتعاطي في الواقع بحذر، أي: لم يكن ذلك المنعزل كليًا عن هذا الواقع ولا هو الذائب في هذا الواقع والمندمج فيه والمنسجم معه والضائع فيه.. لا، يختلط بالناس بقدر ويتعد عن كل الظواهر السلبيه والمنكرات، عنده اهتمام بواقع الناس.

إسهامه في بناء الكعبة:

أسهم في بناء الكعبة عندما أعيد بناؤها في ذلك العصر، وكان هو الذي تولّى حل المشكلة التي طرأت ما بين قبائل قريش على رفع الحجر الأسود، فقدّم حلًا حكيمًا حفظ به دمائهم، وكانوا وصلوا إلى درجة الاستعداد للحرب والقتال فيما بينهم، التنازع على أي قبيلة تتولّى هي رفع الحجر الأسود في موضعه في الكعبة؛ فقدّم لهم ذلك الحل الصائب والسديد عندما طلب قطعة قماش كبيرة ووضع الحجر فيها وطلب من كل قبيلة أن

يأتي زعيمها فيرفع بطرف الثوب فتشترك كل القبائل في رفع الحجر ثم يضعه بيديه الشريفتين في مكانه.

الرسول كان محاطاً بالرعاية الإلهية:

كان رسول الله - صلوات الله عليه وعلى آله - في تلك الفترة في هذا الحال من البناء الإلهي والإعداد الإلهي محفوفاً بملائكة الله، مؤمناً له كل أسباب الرعاية، مطهراً ومصوناً من أي مؤثرات في ذلك الواقع القائم الذي قد طغى في كل الأرض ومن ذلك في واقع مكة، وصل إلى مكة كل شيء: الوثنية والأصنام والبغي والظلم والفساد والمنكرات والفواحش ووآد البنات وقتل الأبناء، كل المصائب وصلت إلى هناك وغير هناك، فعاش مصوناً حتى أذن الله بابتعائه بالرسالة.



المرحلة الثانية: البعثة النبوية

طريقة نزول الوحي :

في ابتعائه بالرسالة الله - سبحانه وتعالى - - بلا شك - كان قد هيأه لذلك ببعض أو بكثير من المقدمات، أي: لم تكن المسألة فجأة بشكل صادم لرسول الله هكذا دفعة واحدة، لا، لا بد أن هناك مقدمات، المسألة طبيعية والله هو الحكيم وأحكم الحاكمين في التهيئة لرسول الله وهذا ما ورد في السير والأخبار: بمنامات، بهتافات من الملائكة، بتسليم عليه من الملائكة، بإشارات كثيرة، بأمور كثيرة لا يسع الوقت للحديث عنها والدخول في تفاصيلها.

غير أنه يمكن أن يكون من الأهمية أن نشير إلى أنه لا صحة أبداً لبعض الروايات التي قدمت صورة فظيعة ووحشية، خالية من القداسة عن بدء الوحي على رسول الله - صلوات الله عليه وعلى آله -، من يقولون في روايات غير صحيحة - نعزم ونقطع بأنها غير صحيحة - بأنه فوجئ رسول الله وهو في الغار بالظهور المباغت والهجوم المفاجئ لجبريل - عليه السلام - عليه إلى داخل الغار فجأة ليظهر أمامه ويقول له دفعة واحدة (اقرأ) هكذا، أي: هجوم مباشر ومفاجئ وبدون مقدمة (اقرأ) فيقول ما أنا بقارئ، أي: أنا لم أتعلم، ما عندي ما أقرؤه؛ فيهجم عليه هجوماً مباشراً ويغطه، في بعض التعبيرات يخنقه، وفي بعضها أخذ بخنقه حتى كاد أن يلفظ أنفاسه

ثم تركه، ويقول له (اقرأ) فيقول ما أنا بقارئ، ثم يشن عليه الهجوم مرة أخرى! هذه رواية عجيبة جداً!.

البعض كيف يستسيغون أن يتحدثوا عن جبريل بهذه الطريقة؟! أي معلم في واقعنا البشري لو يتصرف بهذه الطريقة لتعرض لانتقادات كبيرة، أما في بعض المناطق فسيتعرض للطرد من المدرسة (كيف تتعامل مع الطلاب على هذا النحو؟!).

يقولون في بعض التعبيرات: فغطَّه مرة ثانية حتى أيس من نفسه، أي: ظن أنه سيموت من ذلك الهجوم الشديد والعنيف جداً الذي خنقه فيه حتى كاد أن يموت، ثم تركه ليستعيد نفسه بعد أن كاد أن يموت! أي حالة رهيبة وفظيعة ثم يقول له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾!.

هذه الرواية وهذه الطريقة لبدء الوحي ليست صحيحة أبداً وفيها إساءة واستفاد منها أولئك المشككون والمتردون والمستشرقون، منها ومن أمثالها من الروايات التي تقدم عملية الوحي عملية غريبة جداً خالية من كل تلك الأجواء المقدسة التي عرضها لنا القرآن في وحي الله إلى موسى - عليه السلام -، إذ لا يوجد فيها خنق ولا فيها (غطَّه حتى كاد أن يلفظ أنفاسه) ولا فيها أي شيء من هذه الإجراءات التي تأتي بغتة بدون مقدمات.

كيف كانت عملية الوحي إلى موسى - عليه السلام -؟ أولاً يرى ناراً هناك تلفت نظره ليذهب إليها لوحده، يقترب فيرى ناراً غير محرقة، يرى

نارًا نورانية تتوقد بالنور في الشجرة، يُخاطب بخطاب مقدس، يُرحب به، يُرشد إلى قداسة هذا المكان ويوجه بخلع نعليه، يتقدم وهو يعرف من يخاطبه، والجهة التي تتخاطب معه، ويرى الملائكة حافين بذلك النور، وهكذا، أي: عملية كلها قداسة، كلها اطمئنان، كلها رحمة، وحفت بالطمأنة له: أن لا يخاف، وأن يطمئن، وأن خطابه من الله... إلى آخره.

بالتأكيد لم تكن عملية التخاطب مع رسول الله بتلك الوحشية، بتلك الطريقة الغريبة والفضة والتي فيها غط وخنق وما شابه، كانت بطريقة مختلفة.

رسول الله - صلوات الله عليه وعلى آله - لم تكن رؤيته لجبريل كما يبدو من خلال القرآن الكريم في الغار هذا، أولاً لقد رآه خارج الغار، ورآه في أفق السماء قادمًا أي: لا تأتي المفاجأة عليه إلى داخل الغار، فلا يتنبه إلا بظهوره عليه هكذا فجأة داخل الكهف.. لا، وهو خارج الغار، الله يقول:

﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ [التكوير ٢٣] أي: رأى جبريل ﴿بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ بالأفق في جو السماء نازلًا إليه، وفي جو لا لبس فيه ولا ارتياب ولا شكوك، جو واضح ورآه رؤية العين ورؤية الفؤاد وعرف المسألة بوضوح.

كثير من الأخبار والروايات الصحيحة ذكرت كيف أنه رآه وهو نازلٌ بالأفق المبين الواضح، ووصل إليه وسلّم عليه وعرفه على نفسه أنه جبريل، وأنه نازل بالوحي عليه، وأقرأه السلام من الله، وجلس إلى جانبه في جو

ليس فيه غط ولا خنق ولا أي هجوم وحشي، لا، ليست حلبة مصارعة..
لا، جو مقدس وجو عظيم وجو راقٍ، فتحدث معه وأقرأه السلام من الله
وأخبره بآياتٍ ودلائل حتى يطمئن نفس رسول الله - صلوات الله عليه وعلي آله -،
وأبلغه بالبعثة بالرسالة.

أول ما نزل على الرسول هي سورة الفاتحة:

طبعاً نحن أيضاً نذهب إلى أنه ليس أول ما نزل من القرآن سورة
﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، ونذهب إلى ما روي عن الإمام علي
- عليه السلام - وعن كثير من أئمة أهل البيت - عليهم السلام -، وكثير من
مفسري الأمة وعلمائها إلى أن أول سورة نزلت من القرآن الكريم هي
سورة الفاتحة (فاتحة الكتاب وأم الكتاب) هي أول سورة نزلت من
القرآن، وحتى مضمونها هي أشبه بعناوين عامة تشمل محتوى القرآن، ثم
يأتي القرآن الكريم كتفاصيل لهذه العناوين، وهي أعظم سورة في القرآن
حسب المعروف بين الأمة عن رسولها ونبيها - صلوات الله عليه وعلي آله -،
أعظم سورة في القرآن، والسورة الجامعة التي محتواها كل ما ورد في
القرآن من تفاصيل، ولهذا فرضت علينا قراءتها في الصلاة، ولا تصح
صلاة إلا بقراءتها على العكس من بقية السور القرآنية يمكن أن تقرأ ما
تيسر من القرآن (أي سورة).

فأول ما نزل من القرآن الكريم هي سورة الفاتحة، وليس بالضرورة أن

تكون عملية نزول القرآن في أول لقاء وفي أول رؤية مع جبريل، وحالة الرسالة هي حكيمة ومتدرجة ومنظمة.. إلى آخره.

ونزول القرآن الكريم كان في شهر رمضان، بالنسبة للبعثة البعض يقولون في شهر رجب كانت البعثة، والبعض يقولون في شهر رمضان، والبعض لهم أقوال أخرى، ولكن من المؤكد يقينا أن نزول القرآن ابتداءً في شهر رمضان الكريم لأن الله قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة ١٨٥] وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر ١].

فنزول القرآن لم يكن في غير شهر رمضان ابتداءً، أما فيما بعد فكان ينزل في فترات وفي أوقات متعددة بحسب اعتبارات كثيرة، منها: اعتبارات عملية، ومنها غير عملية، فابتداء نزول القرآن كان في شهر رمضان المبارك كما يؤكد القرآن، وهذا أمر لا التباس فيه.

التحرك بالدعوة:

بعد ابتعاث الرسول بالرسالة بدأ نشاطه بالرسالة من محيطه الأقرب، دعوته هي دعوة عامة، ودين للعالمين، وهو رسول إلى العالمين، وحركته بالرسالة حركة منظمة تبدأ بمراحل: مرحلة إثر مرحلة بطريقة حكيمة وبناءة وعظيمة وناجحة، بدأ بمحيطه الأقرب.

أول نواة للإسلام وأول نواة للرسالة الإلهية: - إيماناً بها وتصديقاً بها والتزاماً بها - رسول الله - صلوات الله عليه وعلي آله - وزوجته خديجة وعلي

بن أبي طالب الذي كان باقيًا عنده ويعيش لديه ويتربى عنده، فكان أول بيت إسلامي وأول نواة للإسلام هي هذه النواة، واستمرت لسنوات - هذه النواة - كما ورد في أخبار كثيرة.

ثم امتدت إلى المحيط العشائري القريب من الرسول، قال الله - سبحانه وتعالى - للرسول - صلوات الله عليه وعلى آله - :

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء ٢١٤] فبدأ بعشيرته الأقربين؛ لأن الإسلام دين لا بد له من أمة تحمله، ولا بد له من نواة تتحرك به، تؤمن به وتحمله كمشروع لها؛ فلو حظ هذا: تأسيس نواة لهذا الدين منذ الحركة الأولى، منذ بداية المشوار فكانت عشيرته الأقربين: بنو هاشم وبنو المطلب، ثم بعد ذلك توسعت هذه الدائرة في بقية مكة، ووصل إلى مرحلة الصدع بالرسالة بين قريش بأكملها ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٩٤] إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ ﴿٩٥﴾ [سورة الحجر].

بعد سنوات - البعض يقدرها بثلاث سنوات - بدأت مرحلة تعميم الدعوة في وسط قريش وبالتالي تصل أرجاؤها إلى كل المنطقة العربية.

مكة أول منطقة تحتضن هذا النشاط الرسالي:

كان من حكمة الله - سبحانه وتعالى - أن تكون أول منطقة تحتضن هذا النشاط الرسالي وحركة الرسول بالرسالة هي: مكة، هذا عامل مهم جدًا في وصول صوت الإسلام وصدى الإسلام إلى كل أنحاء الجزيرة العربية،

وأبعد من ذلك وأبعد من الجزيرة العربية؛ ذلك لأن العرب والوفود كانت تأتي إلى مكة من كل صوب، وبالتالي عند أي خبر مهم انتشر في مكة ستتناقله تلك الوفود إلى مناطقها ويصل إلى الناس، وهذا يمهد فيما بعد لقابلية الإسلام آنذاك، حيث لا يوجد قنوات فضائية ولا إذاعات، وإنما تنتشر الأخبار بطريقة النقل الشفوي والنقل البشري، يسمع الإنسان وينقل إلى بلده.

فكانت مكة خير مكان وأنسب مكان، ومنطقة تبدأ فيها حركة الإسلام ليصل صدها وصوته حتى عندما تأتي الظروف العملية والملائمة في انتشار هذا الإسلام عملياً يكون قد وصل صدها والمعرفة عنه والمعرفة بطبيعة هذا المشروع الإلهي: عناوينه، مميزاته، خلاصة دعوته إلى أرجاء العرب كافة وأبعد من العرب.

خلال هذه الفترة أسلم القليل في مكة، وكانت الدعوة إلى الله وكانت هذه الرسالة بدعوتها للتوحيد خروجاً في نظرهم عن كل ما هو سائد لديهم من عقائد وتقاليد وثقافات هم متمسكون بها ومصرّون عليها ومقدسون لها، أي: كانت تمثل بالنسبة لهم صدمة ومشكلة كبيرة جداً، ثم تشكل في نظر الملأ والمستكبرين منهم خطراً على نفوذهم القائم على أساس تلك الضلالات والانحرافات، والمستفيد منها، هذه مشكلة لديهم.

هذا لربما من أكبر ما صعب الأمور وعقد الأوضاع: أن كثيراً من

الزعامات آنذاك بَتَّتْ زعاماتها ونفوذها وسلطتها وهيمنتها على المجتمع بناء على ذلك الواقع: تمارس التسلط، تمارس الظلم، تمارس الطغيان، تمارس النهب، تمارس المكر، سلوكيات كلها تصطدم مع الإسلام وتدخل في مشكلة مع الإسلام الذي لن يقبل بها أبداً.

واستفادت حتى من الوثنية وما فيها من خرافات، كله جو يساعدهم على تعزيز السلطة ووفرة المال والحصول على الثروة؛ فكانت هذه البيئة العامة التي رأت في هذه الدعوة وهذه الرسالة أمراً متناقضاً معها، أناس أشداء، الواقع العربي نفسه كان العرب فيه شديدون جداً، والمجتمع القرشي نفسه مجتمع شديد وعنيد ومتعنت وخَصِم، لجوجين.. جدليين.. معاندين، أي: بيئة مليئة بالجو المناقض لهذه الرسالة، ومشحونة وشديدة وليست بيئة سهلة، البيئة لم تكن بيئة سهلة أبداً.

وهذا يلفت نظرنا إلى مسألة مهمة جداً وهي ما كان عليه رسول الله - صلوات الله عليه وعلي آله - من الإيمان العظيم بالله والثقة العجيبة بالله - سبحانه وتعالى - . فهو لم يستوحش أنه سيقدم بهذه الرسالة في هذا العالم، ويحمل لواءها ويتحرك بها في عالم كله من حوله ممتلئ بالظلمات والباطل، والكيانات الكثيرة المتكتلة حول هذا الباطل وحول هذا الضلال، والقوى المتعددة في الساحة التي ترعى وتحمي هذا الضلال والباطل، أي: ذلكم الضلال وذلكم الباطل المنتشر في أرجاء الأرض والطاغي في الواقع العربي، وكذلك المسيطر في الوضع في مكة لم يكن بدون رعاة، ولم يكن

بدون حماة، ولم يكن بدون من يحمله، يروح له، يحميه.. لا.

كيانات، وزعامات، وقوى لها قدرتها العسكرية، قدرتها المادية، نفوذها بين أوساط المجتمع قابليتها العالية بين أوساط المجتمع؛ فمعنى أن يتحرك بهذه الرسالة أنه سيدخل في خصومة ومشاكل لا أول لها ولا آخر: بدءًا من محيطه القريب في مكة من قومه من قريش الذين سيضطدّون بهذه الرسالة ويكذبون ويتعتتون ويحاربونها بكل ما يستطيعون، امتدادًا إلى بقية الواقع العربي، وامتدادًا إلى غير الواقع العربي، الكيانات والدول الكبيرة القائمة آنذاك أمثال الروم وأمثال فارس.

كذلك الانتماءات الملية: اليهود هناك، النصارى هناك في ملتهم، اليهود هناك في ملتهم، الوثنيون هناك في ملتهم، الكل يرى في هذه الرسالة تناقضًا معه واختلافًا معه، وكذلك خطورة على ما بنى عليه واقعه المظلم والظالم والفساد. فالكل سيحتك، والكل سيدخل في إشكال كبير تجاه هذه الرسالة.

الرسول كان مستأنسًا بالله، ومتوكلاً على الله، واثقاً بالله، وتحرك غير مكترث بهذا الواقع الكبير من حوله، وبطريقة حكيمة وصحيحة، حظي في حركته بحماية كبيرة من عمه أبي طالب وقبل ذلك هي حماية الله، وكذلك من أسرته بني هاشم، وهذا ساعده في الجو المكّي وفي الوضع القرشي هناك.

قريش في مواجهة الدعوة:

بدأت حالة الإقبال على الإسلام تتحسن ولكن واجهت قريش هذا الإسلام في البداية: بالاعتداء على من يسلم سيما إن كان ضعيفاً ليس له حماية من قبيلته أو من أسرته، أو هو من أسرة ضعيفة لا تتمتع بمكانة اجتماعية تستطيع أن توفر له الحماية؛ فتعرض الكثير ممن أسلموا للاضطهاد والظلم الشديد جداً، وكان من أوائل من تعرضوا لهذا الظلم والاضطهاد: أسرة من اليمن: ياسر والد عمار بن ياسر، وابنه عمار، وكذلك أم عمار (سمية)، هذه الأسرة تعرضت للظلم والاضطهاد الشديد، ووصلت حالة الاضطهاد والظلم إلى استشهاد والد عمار وأمه؛ فكان والده وكانت أمه أول الشهداء في الإسلام نتيجة للتعذيب.

الهجرة إلى الحبشة:

الحكاية طويلة جداً في التاريخ، الرسول - صلوات الله عليه وعلى آله - ابتعث - كحل عاجل لهذه المشكلة - بعضاً من ضعفاء المسلمين إلى الحبشة في هجرة إلى هناك، وأرسل معهم جعفر بن أبي طالب ليكون أميراً لهم ومسؤولاً عنهم ومعتنياً بالحفاظ عليهم ورعايتهم. وكان ملك الحبشة رجلاً متزناً وعادلاً استقبلهم وآواهم، بل وأسلم.

العهد المكّي كذلك استمر فترة طويلة، صراعات كبيرة واجه فيها الرسول حملات دعائية كبيرة جداً، باتهامات توجه له على أنه مجنون،

وعلى أنه ساحر، وما معه من المعجزات - ومنها القرآن بل هو أعظمها -
إنما هو سحر يؤثر.. إلى غير ذلك.

لم يكثر، كان قوياً بقوة هذه الرسالة: رسالة قوية، مبادؤها قوية،
أخلاقيها قوية، مضامينها قوية، وفعالة جداً في أثرها في الإنسان، وفي
فاعليتها في الحياة، وفي أنها صلة مع الله - سبحانه وتعالى -، يحظى من
تمسك بها بمدد من الله وعناية من الله ورعاية من الله - سبحانه وتعالى -^(١).

العوامل الإيجابية والسلبية لمجتمع مكة

عرفنا فيما سبق كيف أن الله - سبحانه وتعالى - أعدَّ مكة والبيت الحرام
لتكون المنطلق المهيأ للرسالة الإلهية الخاتمة، وكيف أن الله - سبحانه وتعالى -
جعل نبيه إبراهيم - عليه السلام - يُودع في مكة المكرمة من يقوم برعاية
البيت الحرام، ومن يتولى هذا المركز الديني العظيم والمهم من نسله، وهو
ابن إسماعيل - عليه السلام -؛ ليمتد هذا النسل عبر الأجيال بكلها وصولاً
إلى رسول الله محمد - صلوات الله عليه وعلي آله - الذي بعثه الله بالرسالة:
خاتم النبيين، وسيد المرسلين؛ فمكة المكرمة أعدّها الله لتكون المنطلق
وتوفرت فيها كل العوامل المطلوبة:

العامل الأول: الفرع الإبراهيمي، إسماعيل - عليه السلام - وذريته من

(١) المحاضرة الخامسة من محاضرات المولد لعام ١٤٣٩ هـ للسيد القائد عبد الملك بدر الدين
الحوثي رضوان الله عليه.

بعده، وفي هذا الفرع حفظ الله هذا الامتداد للدين الإلهي ضمن هذا الفرع، كان هناك عبر الأجيال من يحافظ على هذه القيم، من هو مستودع لهذه المبادئ والقيم العظيمة، من يجسدها، من يلتزم بها جيلاً بعد جيل، بالرغم من وجود الانحرافات التي بلغت إلى أسوأ مستوى، إلى حد الإخلال بمبدأ التوحيد لله - سبحانه وتعالى - والقيم الإلهية، لكن بقي ضمن هذا الفرع هذا الامتداد لتلك القيم ولتلك المبادئ وصولاً إلى عبد المطلب جد النبي - صلوات الله عليه وعلي آله -، الذي عُرفَ بأنه كان ملتزماً بالتوحيد، وكان إبراهيمياً على ملة إبراهيم - عليه السلام -، فيما تحكيه السير والأخبار، وكان على درجة عالية من القيم والمبادئ والأخلاق التي عُرفَ بها.

ثم كان ابنه عبد الله - والد النبي - صلوات الله عليه وعلي آله - كذلك، الشاب الذي عُرفَ وتميَّزَ بما هو عليه من القيم والأخلاق والطهر، ثم أتى النبي - صلوات الله عليه وعلي آله - ابتعثه الله - سبحانه وتعالى -، فوجود هذا الفرع من نسل إبراهيم - عليه السلام - كان أول العوامل الرئيسية، وأول الركائز الأساسية في إعداد مكة المكرمة لتكون المنطلق لختم الرسالات الإلهية.

العامل الثاني: المركز الديني في مكة: بوجود البيت الحرام، بوجود مشاعر الحج هناك، وبقيت فريضة الحج قائمة في أوساط الأجيال جيلاً بعد جيل، من بعد نبي الله إبراهيم - عليه السلام - بعد أن أمره الله كما قال - جلَّ شأنه -: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: الآية ٢٧]، بقي الحج متوارثاً بين الأجيال

بكلها، وبقيت مكة كمركز ديني لها في المنطقة بكلها بين الوسط العربي ب كله (حرمة عظيمة، وقداسة كبيرة) وأصبحت هي التي يحج إليها الناس ويأوون إليها ﴿مَثَابَةٌ لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: من الآية ١٢٥]، كما قال الله - سبحانه وتعالى -، فبقيت هي محط الأنظار في الوسط العربي ب كله، يُقبل الناس إليها، تحظى بالحرمة والقدسية والمكانة الكبيرة في قلوب الناس.

العامل الثالث: الاستقرار الاقتصادي والأمني الذي تميّزت به، بينما كان محيطها ب كله يعيش حالة المشاكل الكبيرة، على المستوى الأمني: هناك حروب بشكل مستمر بين القبائل العربية في محيط مكة، وحالة من الخوف والمشاكل المستمرة، وكذلك حالة من الاضطراب الذي عمّ، وحالة من الفوضى الكبيرة، ثم إضافةً إلى ذلك على المستوى الاقتصادي: كان هناك مشاكل وأزمات ومعاناة اقتصادية بالذات في شبه الجزيرة العربية، القبائل التي تعيش هناك كقبائل أكثرها تعيش حالة البداوة، وتعيش الظروف الصعبة، في مكة كان هناك استقرار اقتصادي، دعوة إبراهيم - عليه السلام - وضمن التدبير الإلهي؛ لأن كلّ المسألة هي أتت ضمن التدبير الإلهي، بدءاً من مسألة الكعبة والبيت الحرام كركيزة إيمانية، ثم يكون إلى جانبها ركيزة أخرى لإسماعيل - عليه السلام -، قبله إبراهيم إماماً للناس، ثم إسماعيل - عليه السلام -، ثم يستمر هذا الدور.

ثم يأتي كذلك هذه الظروف التي هيأت بتدبير من الله، وبأمر من الله، وبتشريع من الله - سبحانه وتعالى -، فحظيت تلك البيئة بحالة من الاستقرار

الأمني والاقتصادي التي لا توجد في غيرها؛ وبالتالي يجتمع الناس إليها لمشاعر الحج، يستفيدون منها - كذلك - على المستوى الاقتصادي، يصل الكل إليها من المناطق العربية المختلفة للحج، يعودون منها فيتناقلون الأخبار، مركزاً اجتماعياً أيضاً، ومركزاً إعلامياً مهماً جداً، فتوفرت فيها كل الظروف الملائمة لأن تكون هي المنطلق الذي تنطلق منه رسالة الله - سبحانه وتعالى - .

في ذلك الجو نفسه، في تلك البيئة نفسها، بين تلك الأمة المتواجدة في مكة، هناك أيضاً تعطش وإظهار للرغبة بنيل شرف الهداية الإلهية والرسالة الإلهية، بما أن أهل الكتاب كانوا في أصقاع أخرى ومناطق أخرى يحاولون أن يتناولوا على الناس من حولهم بأنهم هم أهل الكتاب، وفيهم الرسل والأنبياء، كان العرب في مكة وكانت قريش تتمنى لو أن الله يبعث فيها رسولاً، أو يجعل فيها كتاباً، بل نقل القرآن الكريم فيما يتعلق بهذه الأمنيات قول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿وَأَفْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ

نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمُورِ﴾. [فاطر: ٤٢]

كانوا في أمنيته وفي رغبتهم التي يظهرونها في أن يأتي منهم نذير، وأن يحظوا بهذا الشرف الكبير، وألا يبقوا في حالة الأمية التي يعيشونها: لا كتاب لهم، لا نبي لهم، لا مشروع لهم، كان يصل بهم الحال أن يقسموا بالله ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: أبلغ الأيمان، ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ

أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ: أن يتفوقوا على الأمم الأخرى في الاهتداء بهدى الله - سبحانه وتعالى -، والاتباع للنذير والرسول، لكن الله «جَلَّ شأنه» قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۖ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٢-٤٣].

يقول الله «جَلَّ شأنه» عنهم أيضاً: ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾ [الصفات: الآية ١٦٧]: كانوا قبل بعثة النبي - صلوات الله عليه وعلى آله -، ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾ [١٦٧] لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصفات: ١٦٧-١٦٩]، كانوا يزعمون أن لو بقي بينهم كتاب من كتب الله - سبحانه وتعالى -، وهدى يتمسكون به، لكانوا على هذا النحو الذي يتميزون به على بقية الأمم، ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾، لما أتى هذا الذكر وهذا الهدى ماذا فعلوا؟ ﴿فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الصفات: الآية ١٧٠]، فإذا: كانت البيئة مهيأة لأن تكون هي المنطلق لهذه الرسالة الإلهية.

لم يحظ مجتمع مكة بشرف حمل الرسالة:

المشكلة عندما أتت هذه الرسالة الإلهية في هذه الظروف المهيأة لانطلاقها، لم يحظ ذلك المجتمع بشرف حمل هذه الرسالة، والنهوض

بهذه المسؤولية العظيمة والمهمة، ونيل هذا الشرف الكبير في حمل راية الإسلام.

الرسول - صلوات الله عليه وعلى آله - عندما بعثه الله بالرسالة استفاد من كل هذه الظروف لتصل رسالته ويصل صداها إلى بقية المجتمعات التي تأتي إلى مكة للحج، فعلمت به، وسمعت منه، وتعرفت عليه، ونقلت خبره وخبر رسالته، والمبادئ التي يعلنها في هذه الرسالة الإلهية، نقلتها إلى بقية المجتمعات، واستفاد أيضاً من هذا القدر من الاستقرار الذي لم يكن متهيئاً في بقية المجتمعات لبدأ بهذه الرسالة الإلهية، ويتحرك بداية حركته التي تحتاج في بدايتها إلى هذا القدر من الاستقرار.

ثم أيضاً استفاد من هذا المركز الديني الذي تركّز عليه المجتمعات الأخرى، وهي متطلعةٌ إليه، استفاد من كل هذه العوامل، وبدأ بإعلان الرسالة الإلهية والصدع بها والتبليغ لها، وواجه المشاكل والتحديات في ذلك المجتمع.

العوامل السلبية في تلك البيئة التي حالت دون نهوضه بالمسؤولية:

فإذا أتينا لدراسة واقع هذا المجتمع، ما هو المانع له عن استقبال هذه الرسالة التي هي رسالة عظيمة، ورسالة هدى، ورسالة حق، مع أنهم كانوا يتمنون أن يأتي منهم رسول، وأن يأتي فيهم نبي، وأن يُبعث فيهم نذير،

وكانوا أيضاً يتمنون ويزعمون لو أنَّ عندهم ﴿ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾، أنهم كما يزعمون لكانوا ﴿عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾، فلماذا كانت ردة الفعل من جانب الكثير منهم سلبية؟ ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾، ﴿مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ﴿٤٢﴾

اِسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾، ما هي العوامل التي تؤثر على بعض المجتمعات فتحول بينها وبين القبول بالحق، وبين الإيمان بالحق، والاهتداء بهدى الله - سبحانه وتعالى - ؟ رسالة الله في أصلها رسالة جذابة وعظيمة، مبادئها مبادئ عظيمة، والحق فيها واضح، والقيم والأخلاق التي تدعو إليها هي منسجمة مع الفطرة البشرية، دين الله هو دين الفطرة، ﴿فَظَرَّتْ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: من الآية ٣٠].

ما الذي يؤثر على بعض المجتمعات فتتخذ المواقف السلبية التي تصل أحياناً ليس فقط إلى مستوى التنكر والنفور من تلك المبادئ والقيم الإلهية، والابتعاد عن الرسالة الإلهية، والتنصل عن النهوض بهذا الشرف العظيم، إنما إلى مستوى المحاربة لهذه الرسالة الإلهية، والسعي إلى القضاء على كل من يحمل هذه الرسالة ويدعو إليها؟

هناك مجموعة من العوامل في مقدّماتها ثلاثة عوامل كانت بارزة إلى

حد كبير:

العامل الأول في تلك البيئة هو: الارتباط بالملاّ المستكبر، الذي له دوافعه في الكفر بهذه الرسالة، والتصدي لهذه الرسالة الإلهية، ولهذا

عندما قال الله - سبحانه وتعالى - : ﴿مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۚ﴾ ^(٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ، الذين استكبروا هم المملأ في المقدمة، المملأ: البعض من القيادات السلطوية التي تتمتع بالمال والسلطة والنفوذ بين أوساط المجتمع، ورأت في الرسالة الإلهية أنها تؤثر على هذا النفوذ، لماذا تؤثر على هذا النفوذ؟ لأنه نفوذ استغلالي قائم على الظلم، على الطغيان، على الاستعباد، على الإذلال، على الممارسات الإجرامية؛ وبالتالي يتعارض بشكل واضح وصريح مع رسالة الله - سبحانه وتعالى - التي تحرر الإنسان، والتي تحمي هذا الإنسان من الاستعباد والاستغلال، والتي تبني المجتمع المسلم ليكون مجتمعاً حراً عزيزاً كريماً، والتي تبني واقع هذا المجتمع على أساس من العدل، الرسالة الإلهية بمبادئها العظيمة وقيمها وأخلاقها المهمة، يرى فيها السلطويون المستكبرون مشكلة؛ فيتحركون للتصدي لها، والمحاربة لها.

فالعامل الأول: - كما قلنا - يعود إلى المستكبرين، فالمستكبرون انزعجوا لما ذالم يكن الرسول واحداً منهم، واحداً من أولئك المستكبرين، يتصورون المسألة مجرد زعامة، مجرد سلطة، مجرد مركز اجتماعي ومنصب معين للتمتع من خلاله بالسلطة والنفوذ والتأثير والمصالح والاستغلال الذي يعيشونه، فكانت كلمتهم المعروفة التي نقلها لنا القرآن الكريم: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: من الآية ٨]، هذه عندهم مشكلة كبيرة: كيف ينزل هذا الذكر (أي: القرآن الكريم، والرسالة الإلهية) إلى رسول

الله محمد - صلوات الله عليه وعلي آله - الذي لم يكن واحداً من أولئك المملأ
المتسلطين، الأثرياء، الذين يمتلكون السلطة والثروة وذلك النفوذ المبني
على ذلك: المبني على سلطة وثروة مادية هائلة.

العامل الثاني: كان المجتمع أيضاً من حولهم ينظر إليهم هم من
موقعهم في السلطة، والثروة، والنفوذ، والاستغلال، ينظر إليهم على أنهم
هم الكبار الذين يتبعهم، الذين يتأثر بهم، يقتنع بما هم عليه، يلتزم بما هم
عليه، يقتنع بأقوالهم، بأفكارهم، بسياساتهم، يسير وفق توجهاتهم، هذه
كانت نظرة مؤثرة على المجتمع في نفس الوقت، وأثرت إلى حد كبير،
حتى كان المعيار المادي هو المعيار المؤثر في أوساط الكثير من أبناء المجتمع
آنذاك، يعني: ينظرون إلى الإنسان كعظيم بقدر ما يمتلك من ثروة ونفوذ
وتأثير وسلطة، وليس بقدر ما هو عليه من الحق، وما يمتلكه من قيم، وما
يتخلق به من أخلاق، الرصيد الأخلاقي والقيمي لا يمثل بالنسبة لهم وزناً
في أوساط المجتمع.

ينظرون في مسألة الاتباع، في مسألة التأثير، في مسألة القناعة إلى تلك
الفئة المستكبرة، بالرغم من أنها فاقدة للمبادئ والقيم، يأتي شخص معين
يمتلك ثروة، يمتلك سلطة، يمتلك نفوذاً في أوساط المجتمع مبنياً على
تلك السلطة والثروة، ينظرون إليه مهما كان مفلساً على مستوى المعرفة،
على مستوى المبادئ، مهما كان منحطاً على المستوى الأخلاقي، ومفلساً

على المستوى الإنساني والأخلاقي، لا يلتفتون إلى ذلك، ينظرون إليه إلى أنه كبير بقدر ما لديه من ثروة وسلطة ونفوذ؛ فينشدون إليه، ويتأثرون به، ويتجهون في الاتجاه الذي هو عليه.

وهذه حالة سلبية جداً، لا يزال تأثيرها يمتد في واقع الناس، في الواقع البشري إلى اليوم، ولا يزال كذلك في حالة من الامتداد، لا ينقذ الناس من هذا التأثير إلا الاستيعاب للقيم والمبادئ الإلهية، والاهتداء بهدى الله - سبحانه وتعالى - .

ولذلك نقل القرآن الكريم كيف كان يقول ذلك المجتمع: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: الآية ٣٦]؛ لأنهم ينبهون بعظمة القرآن الكريم، مع أنهم كفروا به، لكنهم كانوا منبهين به، وكانوا في قرارة أنفسهم يدركون أنه من الله - سبحانه وتعالى - ، وأنه ليس صناعة بشرية، ولا إعداداً بشرياً؛ فلذلك كانوا منبهين به، لكن كان عندهم هذه العقدة: لماذا لم ينزل على أحد أولئك الزعماء؟ قالوا: (مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ) يعني: مكة أو الطائف، (عَظِيمٍ)؛ لأن العظمة عندهم كانت تقاس بالماديات: من هو ذو الثروة الكبيرة، والإمكانات الهائلة؛ فهو - بنظرهم - العظيم الذي يتبعونه، الذي يسرون وراءه، وهكذا نجد هذه مشكلة كبيرة أثرت عليهم: النظرة المادية، الارتباط بالملأ المستكبر والزعامات المستكبرة التي صدَّتْهم عن الإيمان بهذا الهدى، وعن نيل هذا الشرف العظيم، مع أن هذه الرسالة في أصلها، في جوهرها، في مبادئها، في قيمها، في أخلاقها..

جذّابة، وتنسجم مع الفطرة، ولحملها والإيمان بها.. الشرف الكبير الذي تنال به الأمة التي تؤمن بها وتلتزم بها السيادة في الواقع البشري، أن يكون لها الدور العظيم في الواقع البشري، أن تتأهل لقيادة البشرية، قيادة قائمة على أساس الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، قيادة قائمة على التحرك بالبشرية لتكون في مسيرة حياتها - للنهوض بمسؤوليتها في الاستخلاف في هذه الأرض - لتكون وفق منهج الله - سبحانه وتعالى -.

كان الرسول - صلوات الله عليه وعلي آله - يعدمهم بهذا الشرف العظيم، بهذا الفضل الكبير، ويذكرهم به، ولكن - الكثير منهم - لم يلتفتوا إلى ذلك، وبقي الكثير منهم مصراً على موقفه وعناده وكفره، إلى درجة أن الكثير منهم وصل إلى مستوى الخذلان، وصل إلى المستوى الذي عبّر عنه القرآن الكريم بقول الله - سبحانه وتعالى - : **﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾** [يس: الآية ٧]، إلى هذه الدرجة السيئة جداً والخطيرة للغاية التي وصلوا بها إلى هذا المستوى: مستوى العناد الشديد الذي عبّروا عنه هم في دعائهم عندما قالوا كما نقل القرآن عنهم ذلك: **﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ يَدْعُونَ اللَّهَ ۖ اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ ۖ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾** [الأنفال: الآية ٣٢]، وصلوا إلى هذه الدرجة في موقفهم السلبي جداً من هذا الهدى ومن هذا الحق، وعنادهم الشديد جداً.

العامل الثالث: المخاوف التي قد تنتج كردة فعل من التحرك بهذا المشروع، وقد ردَّ الله على هذه الدعاية بقوله: - سبحانه وتعالى -
﴿وَقَالُوا إِنَّا نَتَّبِعُ الْهُدَى مَعَكَ نَتَخَفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نَمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

ولذلك كانت تلك البيئة معدة من الله - سبحانه وتعالى - لانطلاقة الرسالة، لكن ذلك المجتمع لم يتهيأ لأن يحظى بشرف حمل هذا المشروع الإلهي والنهوض به؛ فأتت سنة الله - سبحانه وتعالى - في الاستبدال: استبدال هذا المجتمع بمجتمع آخر يحظى بهذا الشرف الكبير، يفوز بهذه المنزلة العظيمة، وبهذه المهمة العظيمة والمقدسة، كان هذا المجتمع هو مجتمع الأنصار في يثرب (الأوس والخزرج)، الذين وفدَ وفدٌ منهم إلى مكة، وسمع بدعوة النبي - صلوات الله عليه وعلي آله - وتأثروا، وأسلموا، وعادوا أيضاً إلى قومهم، ثم في الموسم القادم أتى وفد أكبر، وهذا الوفد أيضاً دخل في الإسلام، وبعث معهم الرسول - صلوات الله عليه وعلي آله - سفيراً أو رسولاً من عنده إلى المدينة ليقوم بدور التهيئة.

ثم عندما أتى الأمر من الله - سبحانه وتعالى - بالهجرة من مكة، وأتم النبي دوره في مكة، وأتى قول الله - سبحانه وتعالى -: **﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾** [الذاريات: الآية ٥٤]، تهيأت ظروف أخرى ومجتمع آخر ومرحلة جديدة

للهوض بهذه الرسالة، والتحرك بهذه الرسالة في الواقع البشري، فكانت
مرحلة مهمة.^(١)

العوامل الإيجابية التي ساعدت بأن تكون مكة بداية المشوار

كان من أهم العوامل الإيجابية التي ساعدت بأن تكون مكة منطلقاً
مناسباً للرسالة الإلهية، وأن تبدأ فيها حركة الرسول - صلوات الله عليه وعلي
آله - بالرسالة:

- أنها كانت خارج النفوذ والسيطرة للقوى الكبرى في ذلك الزمن، كان
هناك الروم دولة كبيرة، ودولة عظمى آنذاك، ونفوذها واسع، وسيطرتها
قوية على كثير من المناطق، وتأثيرها العالمي واسع، وكان هناك أيضاً
الفرس، ولهم كذلك دولتهم القوية، ونفوذهم الواسع، وتأثيرهم الكبير،
ولكن مكة كانت خارج السيطرة لهذه القوى الكبرى آنذاك، وقد فشلت
حملة أبرهة - الذي هو امتداد للروم، وضمن دائرة نفوذهم، ومن المواليين
لهم، والمرتبطين بهم - فشلت في السيطرة على مكة، وكانت تهدف - من
خلال تلك السيطرة - إلى تغيير الوضع في مكة، من حيث كونها مركزاً
دينياً ترتبط به العرب قاطبةً، أو كذلك - وهي نقطة رئيسية - التصدي لما
يعتبرونه بالنسبة لهم خطراً قادمًا.

(١) من المحاضرة الثانية للهجرة النبوية لعام ١٤٤١ هـ.

وهم كانوا من خلال ما لديهم من آثار، وما لديهم من كتب يقدِّرون تلك المرحلة بأنها مرحلة قدوم ومولد النبي محمد - صلوات الله عليه وعلى آله -، وأنه سيولد وينشأ ويبدأ حركته بالرسالة الإلهية من تلك المنطقة، فجعل الله كيدهم في تضليل، وأتت العقوبة الإلهية الكبيرة المنكِّلة بجيش أبرهة، كما ذكر الله ذلك «جَلَّ شأنه» في القرآن الكريم في سورة الفيل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ
 ١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ
 ٣ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾

[الفيل: ١-٥].

دمَّر الله ذلك الجيش بشكلٍ كامل، وفشلت تلك المحاولة في السيطرة على مكة، وهذه الحادثة الكبيرة والمهمة والعجيبة عززت حالة الاستقلال في وضعية مكة، وأن تبقى خارج نفوذ أي طرف من تلك الأطراف والقوى الكبرى المعاصرة في ذلك الزمن، فهذا كان عاملاً إيجابياً يساعد على انطلاقة الرسالة الإلهية، وضمن التدبير الإلهي، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف: من الآية ٢١]، الله - سبحانه وتعالى - هو الذي يُهيئ الظروف المناسبة. كان أيضاً من العوامل المساعدة والإيجابية والمفيدة، التي أفادت وساهمت وساعدت في حركة الإسلام في مرحلته المكية هو:

الدور الإيجابي والكبير والمهم لأبي طالب، عم النبي - صلوات الله عليه

وعلى آله -، ومعه بنو هاشم؛ لأن النبي - صلوات الله عليه وعلى آله - في بدء حركته بالرسالة لم يكن قد كوّن أمةً تحمل هذه الرسالة وتناصرها، وكان لا بدّ له من أن يقف إلى جانبه من يساعده في الحماية له، في الدفاع عنه، في مواجهة الخطر الذي قد يستهدفه، أبو طالب هو عم النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، وهو كافله منذ الطفولة، ومربيّه، والحامي له في كل المراحل التي مضى بها منذ طفولته إلى أن توفي أبو طالب.

النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - [كما أشرنا سابقاً] نشأ يتيماً، توفي والده (عبد الله بن عبد المطلب) وهو لا يزال - كما في بعض الأخبار والروايات - في مرحلة حمل والدته، وفي بعضها بعد الولادة بفترة وجيزة، البعض يقدّر بها بأشهر، البعض يقدّر بها بسنوات، والمجمع عليه أنّه - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - نشأ يتيماً، كما أشار الله إلى ذلك في القرآن الكريم، وذكر ذلك في سورة الضحى، نشأ يتيماً، توفي والده مبكراً، وتوفيت والدته في وقت مبكر، ثم توفي أيضاً جده عبد المطلب في وقت مبكر، فقام بكفالته والعناية به عمه أبو طالب.

أبو طالب قام بدورٍ مهم وإيجابي وكبير، وسطرّه التاريخ: كيف كانت مواقفه الثابتة التي لم يتزعزع عنها في الدفاع عن الرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، وفي حماية الرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، وكان له ثقله ونفوذه وتأثيره، ووقف معه بنو هاشم (عشيرة النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -) في ذلك.

تحرك قريش بالدعايات ضد رسول الله:

بعد وفاة أبي طالب زادت المخاطر على رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، ومع استمرار النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - بحركته بالرسالة الإلهية، وتحركه الواسع والقوي والمؤثر، كانت الحساسيات تزداد، وكانت المشكلة مع المشركين في ذلك المجتمع المكّي تكبر يوماً بعد يوم، وكان التوتر يزداد، كلما استمرت الحركة وكلما زاد التأثير؛ كلما زاد انزعاجهم من الإسلام، ومن حركة النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -؛ ولذلك نظّم الملاء من قريش نظماً حملةً للتصدي للرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، ومحاربته بأساليب متعددة، منها:

١- العمل من خلال الدعايات المشوهة للنبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - بهدف التأثير على الناس، وإبعادهم عن التقبّل منه، وعن الاستماع له، وعن الاستجابة له، وجّهوا دعايات بهدف التشويه لشخصية النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - مع أنّه معروفٌ بين ذلك المجتمع بكماله الإنساني والأخلاقي، وبرشده.

معروف بشكل كبير في ذلك المجتمع، ولكن مع ذلك حاولوا أن يشنوا عليه دعايات: دعاية أنه مجنون، وحاولوا الترويج لهذه الدعاية، وحاولوا أن يقنعوا بها الناس، ثم الترويج لدعاية أخرى بعد أن فشلت هذه الدعاية ولم تلق القبول في أوساط المجتمع؛ لأنها كانت دعاية مكشوفة في أنها

كاذبة لا أساس لها من الصحة، يأتون إلى أرشد إنسان في البشرية ليتهموه بالجنون!

فشلت هذه الدعاية وسقطت، وجهوا إليه دعايةً أخرى بأنه ساحر، طبعاً هناك الكثير من الدعايات التي أطلقوها عليه: شاعر، ثم لم تنفق هذه الدعاية؛ لأنه كان من الواضح أن القرآن الكريم ليس شعراً، وليس بأوزان الشعر، والعرب يعرفون كيف هو الشعر، وكيف هي أوزانه، ثم فشلت تلك الدعايات.

في الأخير كانت الدعاية الرئيسية التي ركّزوا عليها بشكل كبير هي: ساحر، والدعاية على القرآن الكريم كذلك، التي تستهدف القرآن، وتحاول أن تبعد الناس عن التأثير بالقرآن؛ لأن العرب انبهروا بالقرآن الكريم، كان العرب لا يزالون بلغاء، لا يزالون على أوج ما هم فيه من القدرة البلاغية والكلامية، ولغتهم هي أرقى لغة في العالم، فكانوا يدركون بلاغة القرآن الكريم وفصاحته، وكانوا ينبهرون به، فحاولوا أن يشنوا دعايات ضد القرآن الكريم: أن يصفوه بالأساطير، قالوا عنه: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: من الآية ٥] شككوا بقدر ما يستطيعون في أنّه من الله، يزعمون أنّه افتراه، يزعمون أنّه تلقاه من أشخاص آخرين، ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي﴾ [النحل: من الآية ١٠٣].

وهكذا كانوا في كل فترة يطلقون دعاية معينة ضد القرآن، دعايةً أخرى ضد رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، ويروّجون لها في المجتمع، ويحرّكون من ينشط لبث تلك الدعاية أو تلك بين أوساط الناس، حتى في مواسم الحج كانوا يفعلون ذلك، وحاربوه بالدعايات وبال حرب الإعلامية لفترة طويلة.

٢- ثم عندما فشلوا - وكان تأثيره يستمر وحركته مستمرة - ازداد قلقهم، دخلوا في مساومات، ومساومات حاولوا فيها أن تكون مغرية، عرضوا عليه الكثير، عرضوا عليه أن يملّكه عليهم، قالوا: [إذا كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، جعلناك الملك علينا، ولكن تقبل وتستمر معنا على ما نحن عليه، تترك هذه الرسالة، هذا المشروع الذي جئت به تتركه، وتكون ملكاً وفق الحالة التي نحن عليها]، وحاولوا أن يعرضوا عليه مساومات مالية: أنهم مستعدون أن يقدّموا له من المال ما يكون به أثري رجل فيهم.

وحاولوا أن يقدّموا إليه إغراءات أخرى، فرفضها بشدة، ومن حقه - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أن يرفضها، ومن الطبيعي جداً أن يرفضها؛ لأنه لم يكن يسعى لكل ذلك الذي كانوا يتوهمون أنه قد يكون ساعياً له، أو أنه قد يتقبل به ليترك رسالته - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -.

٣- عندما فشلوا في الدعايات، وفشلوا في المساومات، اتجهوا أيضاً إلى وسيلة الضغط والاستهداف، حاولوا أن يعذبوا كل الذين يؤمنون به

ممن ليس لهم حماية اجتماعية من خلال قبائلهم، وحاولوا أن يلاحقوا البعض منهم بالتعذيب، ثم تأمروا على النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - لاستهدافه بشكل مباشر، وعندما توفي أبو طالب ازدادت هذه المؤامرات وهذه الأخطار على حياته - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، في الوقت الذي كان الله يهيئ له الهجرة، ويهيئ له مجتمعاً بديلاً عن ذلك المجتمع؛ ليكون مجتمعاً حاضناً وحاملاً للمشروع الإلهي، وللرسالة الإلهية، ولراية الإسلام.

التقى النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ضمن نشاطه الذي كان يقوم به في موسم الحج ويلتقي من خلاله بالقبائل، يعرض عليها الإسلام، ويعرض عليها هذا المشروع الإلهي العظيم - فالتقى بمجموعة من الخزرج من المدينة، عرض عليهم الإسلام؛ أسلموا وآمنوا وقبلوا، ثم في الموسم الثاني أتت مجموعة أكبر، وكانت فيها بيعة العقبة الأولى، في الموسم الثالث أتت مجموعة أكبر كذلك، وكانت بيعة العقبة الثانية، والتي هي كانت قريبة من وقت الهجرة.

ثم النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - بدأ يدفع بأصحابه للخروج من مكة والالتحاق بالمدينة، والكثير منهم ممن قد يتعرّضون للخطر فيما لو هاجر قبلهم، قدّمهم قبله ليهاجروا إلى المدينة، ثم تحرّك أولئك وقد أحسوا بالخطورة - بالنسبة للمشرّكين - وعقدوا مؤتمراً يتدارسون فيه الموقف الحاسم والنهائي ضد رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، اجتمعوا

في دار الندوة التي يجتمعون فيها ليناقدوا كل المواضيع المهمة المتعلقة بهم، وناقشوا خطة للحسم مع رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، ولإنهاء الأمر معه، وسطر القرآن الكريم مؤامرتهم تلك بقول الله - جلَّ شأنه -: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٣٠]، فهم اجتمعوا للمكر برسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - والتآمر عليه، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وكان مكرهم يتلخص في دراسة ثلاثة خيارات: هي كما قال الله «جلَّ شأنه»: ﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

درسوا كل هذه الخيارات: خيار ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾، يعني: الاعتقال للنبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - والسجن له، ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾: التخلص منه بطريقة القتل، ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾: الطرد من مكة والإخراج من مكة، ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾: قاموا بكل تدابيرهم وفق الخيار الذي اختاروه وهو خيار القتل، اجتمع رأيهم على خيار القتل، فدرسوا الخطة لتنفيذ هذا الخيار، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، الرسالة الإلهية مشروع مرتبطة بالله - سبحانه وتعالى -، بتدبيره، برعايته، بتأييده وبنصره، فالله - سبحانه وتعالى - كان يعلم ماذا يملكون، وفي نفس الوقت كان في تدبيره - جلَّ شأنه - يبطل كل مكرهم، ويحوله لصالح النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -.

الله «جَلَّ شأنه» أخبر نبيه - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - بواسطة الوحي بمؤامرة الأعداء، وأنهم قد عزموا على قتله، وقد أعدوا خطةً لتنفيذ ذلك، وبات الوقت ملحاً لخروجه - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - وهجرته، وكان لا بدَّ أيضاً من خطة للهجرة نفسها، لعملية الخروج: كيف يكون خروجاً سرياً لا يرصده الأعداء؛ لأنهم سيعملون على منعه من الخروج واستهدافه؛ لأن خيارهم أصبح هو القتل، فالرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أعدَّ خطته للتمويه عليهم، والخروج بدون أن يدركوا وأن يشعروا، وكانت تلك الليلة (ليلة الخروج من مكة) هي ليلة المبيت، التي بات فيها الفدائي الأول للإسلام والمسلمين الإمام عليّ - عليه السلام - على فراش النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -.

كان ذلك من ضمن الخطة التي رتبها النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - للخروج، ثم خرج دون أن يشعر أولئك؛ لأن المكان الذي كان ينام فيه كان واضحاً أمامهم، وكان الإمام عليّ - عليه السلام - باقياً في فراش النبي، يظنون أن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - متواجد، يظنون أنه متواجداً هناك، خرج النبي بدون أن يشعروا بلطف الله، وبرعاية من الله - سبحانه وتعالى -، واتجه اتجاهاً معاكساً للطريق إلى المدينة، خرج باتجاه آخر، غير الاتجاه الذي يمكن أن يخرج الإنسان من خلاله إلى المدينة، ضمن خطته التي أعدّها للخروج المنظم وبأسلوب صحيح من مكة، واتجه إلى الغار (غار ثور).

في ذلك الغار بقي فيه النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ؛ لأن أولئك المشركين عندما فشلوا في عملية الاغتيال، ووصلوا في الفجر دخلوا إلى المنزل، واكتشفوا أن علياً - عليه السلام - هو المتواجد على فراش النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، وأن النبي قد خرج، انتشروا على نحو واسع، وباتوا يبحثون عن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - في كل محيط مكة، ويعلنون الجوائز المغرية بالعدد الكبير من الإبل كمكافئة لمن يدل على النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، ويكشف لهم عن مكانه، أو يدلهم عليه.

واستمروا في عملية البحث في كل محيط مكة، وكانت اللحظة الخطرة والحساسة عندما وصلوا إلى قرب الغار، وكانت من أخطر اللحظات على حياة النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، وقد ذكر الله ذلك في القرآن الكريم عندما قال «جَلَّ شَأْنُهُ»: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ٤٠].

في تلك اللحظة لم يكن بجانبه جيش يقف لحمايته، ولا حتى حراسة قوية، شخص واحد فقط يقف بجانبه، شعر بالحزن والقلق الشديد في تلك اللحظة الحساسة والخطرة، والنبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - كان

يطمئننه بهذه العبارة المهمة: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، وهذه العبارة - بنفسها - تقدّم لنا صورةً مهمة عن رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - فيما كان عليه من الثقة بالله «جلّ شأنه»، الثقة العظيمة بالله - سبحانه وتعالى -، وهو في أخطر لحظة، في لحظة خطيرة، وهو المستهدف، في تلك اللحظة هو المستهدف، والتركيز عليه، والهدف هو قتله، وفي تلك اللحظة الحساسة والخطرة جداً كان على هذا القدر من الثقة بالله - سبحانه وتعالى -، والاطمئنان التام، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

كان يشعر بأنه مع الله والله معه، كان يشعر بهذه المعية، وماذا تعنيه هذه المعية: أنه في موقع الحماية الإلهية، النصر من الله - سبحانه وتعالى -، التأييد من الله - سبحانه وتعالى -، الحفظ من الله - سبحانه وتعالى - ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ وهذه هي كانت القاعدة الأساسية التي انطلق منها من أول يوم في حركته بالرسالة الإلهية، هو كان ينطلق بثقة بالله - سبحانه وتعالى -، وتوكل على الله، واعتماد على الله - سبحانه وتعالى -.

لم يكن يمتلك الإمكانيات المادية، وكانت هذه من المشاكل التي يتدّرع بها الكثير من الناس حين رفضوا الإيمان به: [أنك لا تمتلك إمكانيات مادية، ولا تمتلك أيضاً قدرة بشرية كبيرة، ليس لك جيش، وليس لديك ميزانيات مالية ضخمة؛ بينما تأتي بمشروع كبير]، وكانت هذه من الدلائل المهمة جداً على عظمة الرسالة الإلهية، على عظمة المنهج الإلهي، على

عظمة الإسلام كمشروع عظيم وناجح، عندما يتحرك به من لا يمتلكون حتى الإمكانيات المادية، فإذا بهم ينجحون، هو كان ينطلق من هذا المنطلق: **﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾**.

وفعلًا في تلك اللحظة الحرجة والحساسة والخطيرة جداً، هم متجهون للدخول إلى الغار، وهو في ذلك الغار، **﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾**: المدد المعنوي الذي يساعده في التماسك الكبير في تلك اللحظة الحساسة والحرجة، **﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾**: أنزل الله جنوداً من عنده أيضاً لحمايته - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، **﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾**، ورجعوا في القصة المشهورة التي ذكرها أصحاب السير والمؤرخون.

النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - خرج من مكة مهاجراً بالرغم من قدسية مكة، وفيها البيت الحرام والمقدّس، وفيها مشاعر الحج، لكنها لم تعد بيئةً صالحةً لأن تكون حاضنة للمشروع الإلهي، ومؤمنة بهذه الرسالة، وتقّدم النموذج في أوساط الأمة، وفي أوساط المجتمعات الأخرى، هي كانت مناسبة كمنطلق، لكن لم تعد مناسبة كحامل وحاضن لهذا المشروع العظيم، فتركها بالرغم من قدسيّتها عندما فقدت الصلاحية لحمل هذا المشروع العظيم؛ نتيجةً لتلك العوائق التي أشرنا إلى بعض منها: مجتمع مادي، طمّاع، يركّز على الماديات، يرتبط بأصحاب السلطة والثروة، يرتبط

بأولئك المملأ الطغاة المستكبرين، يتأثر بهم، يتأثر بكل من: أبي سفيان، وأبي جهل، وأبي لهب، ويترك رسول الله محمد بن عبد الله - صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله - .

انتقل النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، وكان وصوله إلى المدينة يعبر عن مرحلة جديدة، ويؤسس لمرحلة جديدة ومهمة جداً، وانفراجه كبيرة، وكانت هي المرحلة التي ابنت فيها الأمة، وتأسست فيها الأمة ككيان عظيم بدءاً من تلك النواة الصغيرة والمحدودة.^(١)



(١) من المحاضرة الثالثة للهجرة النبوية لعام ١٤٤١ هـ للسيد القائد عبد الملك بدر الدين الحوثي رضوان الله عليه.

المرحلة الثالثة: العهد المدني

أولاً: المجتمع المدني

الأوس والخزرج وسبب وجودهما:

من المهم جداً أن نتعرف على الأنصار (الأوس والخزرج) ففي قادم التاريخ كان الأوس والخزرج القبيلتان اليانيتان ذخراً لنصرة النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، والمؤرخون يذكرون في التاريخ أنه حينما ذهب الملك (تبع اليمني) إلى مكة ووصل إلى تلك المنطقة، التي وردت آثار في آثار الأنبياء السابقين أنها مهاجر خاتم الأنبياء، ما بين عير وأحد (جبلان) تلك البقعة ما بين هذين الجبلين أنها مهاجر خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، تحكي الآثار ويحكي التاريخ أن (تبع) حينما وصل إلى هذه المنطقة خلف فيها هاتين القبيلتين لبقيا في ذلك المكان ويسكننا فيه، ويستقرا فيه، ويرابطا فيه، ويبقيا حتى يأتي هذا النبي ويهاجر إلى هذا المهاجر، إلى تلك البقعة فيكونان أنصاراً له.

وفعلاً بقي الأوس والخزرج، واستوطن الأوس والخزرج تلك البقعة وأعمروها وسكنوا فيها واستقروا فيها جيلاً بعد جيل، حتى أتى الوعد الإلهي وحتى أتى خاتم الأنبياء رسول الله محمد - صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله -، فكانوا هم الأنصار الذين استجابوا بكل رغبة، كان انتماؤهم

للإسلام انتهاء الإيمان، وانتهاء النصر والجهاد، ورفع راية الإسلام والإيواء
لرسول الله - صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله -، فكانوا كما قال الله عنهم في
كتابه الكريم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ
هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ
عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

كانوا هم الذين تبوءوا الدار، سكنوا تلك البقعة وسبقوا إليها منذ القدم،
منذ زمن بعيد، منذ أجيال بعيدة، سبقوا إليها وتواجدوا هناك ليكونوا ذخراً
لنصرة، وحين أتى الموعد كانوا هم الأوفياء مع الوعد الإلهي والمستجيبين
بشكل مسارع ﴿تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾.

وما أعظم هذه العبارة، استوطنوا الإيمان كما استوطنوا الدار، إيمان راسخ،
إيمان ثابت، إيمان عظيم، ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل المهاجرين الآخرين.
قال عنهم أيضاً في عبارة مهمة وعظيمة في كتاب الله الكريم، وهو
يحكي عما قبل هجرة النبي إليهم، يحكي عن تعنت الكافرين في مكة، عن
تعنت قريش حينما قال:

﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيُؤْسُوا بِهَا
بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

فمن هم هؤلاء الموكلون؟ من هم هؤلاء الذين كانوا ذخراً إلهياً جعلهم
الله - سبحانه وتعالى - معدين لهذه المسؤولية ولهذا الدور وللإضطلاع بهذه

المسؤولية وللتحمل لهذه المسؤولية العظيمة ولنيل هذا الشرف الكبير؟
الأنصار: الأوس والخزرج (القبيلتان البيانيتان).^(١)

(الأوس والخزرج) كان لهما الشرف الكبير والفضل العظيم، والدور التاريخي المهم. هذا المجتمع المكون من هاتين القبيلتين من الأوس والخزرج؛ اختاره الله - سبحانه وتعالى - بديلاً عن ذلك المجتمع.

ودخل هذا المجتمع التاريخ من أوسع أبوابه، فكان هو المجتمع الذي آوى، وكان هو الأرضية التي نبت فيها نبت الإسلام العظيم والطيب، وكان هو المجتمع الذي شكّل اللبنة الفاعلة والصلبة والقوية لنشوء الكيان الإسلامي، فهو المجتمع الذي آوى واستقبل المهاجرين، آوى الرسول ونصره واستقبل المهاجرين، وشكّل مع المهاجرين نواة عظيمة وصلبة وقوية لحمل راية الإسلام، فكان له ميزات مهمة.

بعض مميزات المجتمع المدني:

ونأتي إلى بعض الميزات لهذا المجتمع من خلال نص قرآني ونص نبوي.

النص القرآني يقول الله - سبحانه وتعالى - بعدما تحدث عن المهاجرين
تحدث عن الأنصار - : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ

(١) المحاضرة الأولى في المولد ١٤٣٩ هـ للسيد القائد عبد الملك بدر الدين الحوثي رضوان الله عليه.

يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا
وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴿٩﴾ [الحشر: ٩].

المجتمع في مكة كان مجتمع طمع، مجتمعاً مادياً، مجتمعاً يلهث وراء
أن يأخذ بأي حال، بأي أسلوب، بأي طريقة، المجتمع في المدينة - مجتمع
الأوس والخزرج - كان مجتمعاً معطاءً، مجتمعاً كريماً، مجتمعاً سخياً،
فكانت هاتان الحالتان تشكلان عاملاً مهماً في الفوارق الكبيرة بين مجتمع
جدير ومهياً وقابل لحمل هذه الرسالة، ومجتمع ليس مستعداً لتقبلها.

هذا المجتمع كان على درجة عالية من الاستعداد للتضحية والبذل
والعطاء، مجتمعاً كريماً وسخياً بكل ما تعنيه الكلمة، كان في استعداد
للعطاء، في استعداده للتضحية، في استعداده للبذل، فيما يقدم، فيما يعطي،
كان إلى مستوى هذه الدرجة الفريدة العظيمة المهمة:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

قد يُعطي الغني وهو متمكن، ويعطي قليلاً مما لديه من ثروة، وضمن
حساباته التي يرى فيها أنها أعطاه لا يؤثر على ثروته وإمكاناته، لكن الحالة
التي يؤثر الإنسان فيها على نفسه.. على نفسه.. هي الحالة التي يقدم
فيها لقضيته، يقدم فيها لمبادئه، لأخلاقه، يقدم فيها على حساب مصلحته
الشخصية، وهل الإنسان خاسر في هذا؟.. لا.

هؤلاء الذين هم أهل عطاء، هؤلاء الذين يحملون روحية العطاء بكل

أشكاله هم البناة الحقيقيون للمجتمعات الكبرى، هم الفعّالون، والمؤهلون لحمل القضايا الكبيرة، والمواقف العظيمة والمهمة، هم الاستثنائيون في التاريخ، هم البُناة، هم المؤسسون، هم الذين يصلحون لأن يكونوا رافعة حقيقية للمشاريع الكبرى والمهمة، هم الفعّالون والعمليون، أما أولئك فمكبّلون بالشُّح، بالطمع، بالجشع، بالحرص، لا يؤهلهم ذلك لأن يكونوا راقين، إنما يهيئهم لأن يكونوا منحطين؛ لأن الطمع والجشع يذلّ الإنسان، (الطَّمَعُ رِقٌّ مُؤَبَّدٌ) كما قال الإمام علي - عليه السلام -، رِقٌّ، عبودية، الطمع هو مهانة، هو خزي، هو خِسة، هو انحطاط، هو دناءة، الطَّمَعُ الأعمى والجشع يهين الإنسان، يذل الإنسان، يجعل الإنسان يخضع للباطل أو يتّجه في صف الظالمين والمستكبرين فيمارس معهم وفي صفّهم أي جرائم، وأي فظائع مهما كانت؛ لينال شيئاً منهم.

أما أولئك الذين يحملون روحية العطاء والبذل، هو يفكر في كيف يقدم، وهو يقدم حتى في الظروف الصعبة جدًّا، هؤلاء هم الصابرون، هم الاستثنائيون، هم الأقدرّون على حمل المشاريع المهمة والكبرى، هذه ميزة، ميزة هيأتهم لحمل الرسالة الإلهية.

النص النبوي فيما رُوي عن رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - وهو يقول لهم، يثني عليهم: ((إنكم ما علمتم)) يعني كما أنتم تعلمون وتعرفون أنفسكم ((تكثرّون عن الفرع، وتقلّون عند الطمع)) الله أكبر ما أعظم هذه الصفة! رجال! رجال بما تعنيه الكلمة، تكثرّون

عند الفزع، عند الأخطار، وعند التحديات، تهبُّون وتتحركون وتظهرون وتأتون وتهبُّون. أما إذا المسألة مسألة أطعام ومصالح شخصية تقلُّون. ليس هناك ازدحام من جانبهم، إذا المسألة مسألة غنيمة أو مكاسب مادية، ليس هناك ذلك الازدحام، وذلك التهافت.

كانوا على هذا المستوى، كما قالوا هم عن أنفسهم - يخاطبون رسول الله -: (وَإِنَّا لَصَبِرٌ عِنْدَ الْحَرْبِ، صُدِّقُ عِنْدَ الْلِقَاءِ)، كانت هذه المواصفات المهمة والروحية العالية التي أهَّلتهم لأن يكون المجتمع الذي يحمل رسالة الله، يحمل راية الإسلام، يؤوي وينصر ويستقبل ويحتضن ويتحرك بكل جدية، يعطي لهذه الرسالة كل شيء، يعطي النفس، يعطي المال، ولكنه في المقابل كسب كل شيء: كسب رضا الله، كسب العزَّ الأبدي، كسب الشرف الذي لا يساويه شرف، كسب المكانة التاريخية، وحقَّق الكثير، وحقَّق الله على يديه الكثير.

الأنصار نالوا الشرف العظيم:

الأنصار نالوا هم الشرف العظيم الذي خسره مجتمع قريش في أكثره، مجتمع قريش الذي واجه الرسالة والرسول بالخصام الألد، بالانكران والتكذيب، بالكفر والعناد، بالبغضاء والأحقاد، بالتصلب.. كان هناك مجتمع بديل وكما قال الله - سبحانه وتعالى - ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩] وهنا نستذكر هذه

المنقبة التي ينبغي أن يتطلع إليها شعبنا اليمني العظيم بصفحة بيضاء، صفحة عظيمة في تاريخه، الأنصار الذين هم من أصل يماني من اليمنيين هم حظوا بهذا الشرف، شرف أن يكونوا هم البيئة التي تنصر وتؤوي وتؤيد وتحمل لواء الحق والعدالة وتحمل قيم الإسلام وتستقبل الرسول الذي أراد قومه في مكة قتله، وتأمروا عليه حتى شخصياً وتنكروا لرسالته العظيمة، هياً الله لهؤلاء الأنصار اليمنيين أن يكونوا هم من يؤمنون، من ينصرون، من يؤوون من يتقبل هذه الرسالة بكل رحابة صدر ومحبة وعشق وإخلاص وصدق ومودة فحظوا بشرف عظيم ما بعده شرف.

لم تكن العوائق الموجودة في مكة متوفرة في المدينة:

فمجتمع الأنصار كان مجتمعاً خيراً، معطاءً، صبوراً، وهذه من أهم الصفات، منسجماً مع الآخرين، لم يكن مجتمعاً أنانياً، ولا مستكبراً، ولا يبني مواقفه على أساس من الارتباطات المادية، كان مجتمعاً متخلصاً من تلك السلبيات الخطيرة جداً.^(١)

(١) من المحاضرة الثانية للهجرة النبوية لعام ١٤٤١ هـ للسيد القائد عبد الملك بدر الدين الحوثي.

ثانيًا: أحداث العهد المدني

أتت مرحلة العهد المدني الذي هاجر فيه الرسول إلى المدينة، وكان عرض منذ السنة العاشرة نفسه على القبائل، عرض عليها الإسلام، وأن تحظى بشرف الإيواء والنصرة لهذا الدين، وأكثرها رفضت حتى قابل وفدًا من يثرب، هذا الوفد أسلم وقبل وعاد، وفي المرة الثانية عادوا بعدد كبير، وكانت بيعة العقبة الأولى، ثم بيعة العقبة الثانية، وابتعث الرسول بعد بيعة العقبة الأولى مصعب بن عمير - رضوان الله عليه - إلى المدينة. نشط مصعب بشكل كبير في المدينة حتى أصبحت المدينة جاهزة لاستقبال الرسول والرسالة.^(١)

حظي أهل يثرب (الأوس والخزرج) بشرف أن يكونوا هم الذين استبدلهم الله، واختارهم لحمل هذه الرسالة بدلًا من قريش ومكة التي عصت وأبت وتمردت، وترك - رسول الله - مكة برغم قداستها، وبرغم أهميتها، وبرغم وجود بيت الله الحرام فيها، وأصبح خادماً الحرم الذي يتزعم الوضع في مكة ويزعم أنه الأولي بالله وبيته وبدينه وبكل شيء، أصبح: أبو جهل وأبو سفيان وأبو لهب ومن معهم وغيرهم من المشركين، وترك الرسول مكة ببيتها الحرام وبكل ما فيها، وذهب إلى المدينة. بنى في المدينة مسجدًا (بيتًا لله) تتحرك منه رسالة الإسلام، وقام بخطواته

(١) السيد القائد في المحاضرة الخامسة من محاضرات المولد ١٤٣٩ هـ.

بعد أن وصل إلى المدينة، من بناء المسجد، من الإخاء بين المهاجرين والأنصار وبين المؤمنين كمؤمنين، الوثيقة التي نظم بها الوضع في تعايش سكان المدينة، وتعزيز الروابط بينهم، ليلتفوا حول الإسلام، والتعايش حول دولة الإسلام التي سيبنيها هناك.

بدأت مرحلة جديدة بني فيها كيان الإسلام بشكل عظيم، وكانت مرحلة الهجرة هي مرحلة ميلاد الأمة، ولهذا اختيرت للهجرة.

الصراع المسلح:

بدأت مرحلة الجهاد، بدأت مرحلة الصراع المسلح مع قريش، الذين دخلوا في مراحل جديدة، بدءاً بسعيهم لحصار الرسول اقتصادياً، فواجه هذه الخطوة واستهدف قوافلهم، فعمدوا إلى حربه عسكرياً فتصدى لهم، فكان رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - نبياً ورسولاً عظيماً، هو خاتم الأنبياء والرسل وسيدهم، واجتمع فيه كل ما لدى الرسل السابقين جميعاً، حمل عن كل الرسل والأنبياء كل المواصفات العظيمة في عبوديته لله - سبحانه وتعالى - في كل جوانبها: الروحية والعملية والأخلاقية والسلوكية، والقتالية، كان الرجل العظيم والصابر والثابت والحليم، والذي يعفو عند المقدرة، والصابر أمام الشدائد والمحن، والبطل والشجاع والعظيم، وكان أعظم قائد عسكري عرفه التاريخ.

البيئة العربية كانت بيئة شرسة جداً، بيئة محاربة، والعرب كانوا شرسين

جدًا في القتال، مقاتلين وخصمين، وأبسط الأشياء تسبب حربًا شرسة جدًا فيما بينهم، والبطولة في القتال من أهم ما يتفاخرون به، ومتمرون ومتمرسون على القتال ومعتادون عليه.

وفي هذه البيئة التي خاصمتها، وحاربت، وصارعت، وتوجت وتحركت ضده؛ لم يكن ضعيفا أبدًا، كان عظيمًا بعظمة هذا الإسلام الذي أتى به، بعظمة القرآن والهدى الذي أتى به، فكان هو أول المؤمنين به وأول المسلمين الذي جاء بالصدق وصدق به، وجسد تطبيق تلك التعليمات، وجسد تلك الأخلاق - في واقعه - والقيم العظيمة، وأدار أكثر من ثمانين واقعة من الغزوات والسرايا في حروبه مع كل تلك الفئات التي تكالبت عليه، وحاربت وعادت، وتحركت بعدائية شديدة جدًا ضده وضد الإسلام، وضد المسلمين في مراحلهم الأولى.

أدارها بإدارة عسكرية لا نظير لها ولم يسبق لها مثيل، ولم يأت بعدها مثيل لها، وعظمة الإنجاز الذي تحقق للرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - يفوق كل خيال، وينبهر منه كل متأمل في التاريخ، ولا يجد له حالة مشابهة فيما قبله ولا فيما بعده.

ما الذي تحقق للبشرية؟

المجتمع الذي استقبل الرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - وآمن به، واستعد لنصرته، واستجاب له، وحمل راية الإسلام: هو مجتمع الأنصار،

قرأنا سابقاً النص القرآني العظيم قول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: الآية ٩]،

وكررنا قول النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - المروي عنه: (إنكم ما علمتم - وهو يخاطب الأنصار - إنكم ما علمتم تكثرون حين الفزع، وتقلّون عند الطمع)، هذه المواصفات من أهم المواصفات على الإطلاق للمجتمعات التي تمتلك الصلاحية للنهوض بالمشاريع المهمة والعظيمة، وبم شروع بهذا المستوى: رسالة الله - سبحانه وتعالى - ومنهجه العظيم، مواصفات يجب أن نركّز عليها.

عندما يكون المجتمع مجتمعاً معطاءً، وليس مجتمعاً طامعاً، وليس مجتمعاً مادياً يعبد المال، يمثّل المال بالنسبة له والأطباع المادية بالنسبة له صنماً يجعله فوق كل شيء. لا، مجتمع متحرر من كل ذلك، مجتمعاً يؤثر القيم ومكارم الأخلاق، والمبادئ عنده أغلى من كل الدنيا، على هذا المستوى من العطاء، هذا المجتمع يمكن أن يكون نواة لمجتمع كبير؛ لأنه مجتمع قابل، لا يعيش الأنانية، لا يعيش الطمع، وهو مجتمع معطاء وصبور، يواجه التحديات والصعوبات، عنده تحمل، عنده صبر، ليس مجتمعاً بمجرد أن يعيش ظروفاً صعبة، أو مشاكل معينة، أو أزمات معينة؛

ينهار، يستسلم، يخضع، وليس مجتمعاً طامعاً، بمجرد أن يرى المال هنا أو هناك، أو الاغراءات المادية هنا أو هناك؛ فيبيع كل شيء في مقابل ذلك، ويتبنى المواقف الباطلة. لا، على العكس من ذلك، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾، إلى هذا المستوى من العطاء والتضحية والتقدمة، ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، حتى في الظروف الصعبة، كذلك عبارة: (تكثرون حين الفزع، وتقلّون عند الطمع) من أعظم العبارات، من أعظم الأوصاف على الإطلاق، مجتمع كهذا مجتمع عظيم، مجتمع مهم.

في ذلك المجتمع بدأ النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - بتأسيس أمة جديدة تحمل المشروع الإلهي، ولم يدخل في حسابات الأنصار ما قد يدخل في حسابات الآخرين، وما دخل في حسابات أهل مكة: المخاوف من حمل هذا المشروع الإلهي، والإيمان به، والنصرة لرسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، وأن هذا سيتسبب في مشاكل كبيرة، وأن هذا سيتسبب لهم في أن يدخلوا في عداء مع كل محيطهم من القبائل والبلدان، وأن هذه الرسالة ستكون مشروعاً تختلف مع كل ما هو سائد في الساحة بكلها؛ وبالتالي مشاكل مع القبائل الأخرى، مع البلدان الأخرى، مع محيطهم العربي ب كله، مع محيطهم العالمي، مع الدول الكبرى. هم يدركون أنه سيمثل مشكلة مع الجميع، لكن هذه المخاوف لم تكن بمستوى أن تؤثر عليهم لتبعدهم عن نيل هذا الشرف العظيم، لماذا؟ لأنه بالقدر الذي نجد فيه كل هذه التحديات، وكل هذه الأخطار، وكل هذه المخاوف التي قد

تؤثر على الكثير من الناس في حساباتهم وتقديراتهم للأمور، هناك عناصر قوة في المشروع الإلهي تتفوق وتتغلب على كل تلك التحديات، وهذا ما يغيب عن البعض.

الرسالة الإلهية: دين الله، مشروعه العظيم في مبادئه، وقيمه، وأخلاقه، وشرعه، وحلاله، وحرامه، وأيضاً باعتباره صلة مع الله - سبحانه وتعالى - وليس منهجاً يُقدّم للناس ثم يُتركون وهم وما صاروا إليه، وما كانوا عليه، وما واجهوه من تحديات وأخطار... لا، منهجٌ معه الله، على قاعدة: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، ﴿مَعَنَا﴾ لماذا؟ هل لاعتبارات شخصية؟ أو ﴿مَعَنَا﴾ لهذا الاعتبار، لهذه الرسالة، لهذه المبادئ العظيمة؟ ﴿مَعَنَا﴾ مثلما كان مع الرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، مع من يحمل هذا المشروع، من يؤمن به، من يلتزم به، كمجتمع، كأمة، قاعدة مستمرة، ولهذا نجد أن من أهم المسائل هو الاستيعاب لهذه النقطة؛ لأننا كأمة إسلامية نواجه الكثير من المشاكل في واقعنا الداخلي، ونواجه الكثير من التحديات والأخطار من الأعداء من خارج أمتنا، ثم لا نلتفت إلى عناصر القوة التي يمكن أن نستفيد منها، وهي حتماً، هي حتماً يمكن أن تكون هي الأساس الذي نعتد عليه، وننطلق من خلاله لنغيّر كل هذا الواقع الذي نعيشه، لنعالج كل هذه المشاكل في واقعنا الداخلي كأمة، ولنواجه تلك التحديات التي نواجهها من خارج أمتنا.

الإسلام هو يمتلك عناصر القوة التي يمكن التغلب بها على كل ذلك،

مثلاً: مجتمع الأنصار (الأوس والخزرج) قبيلتان يانيتان كانت تعيش الكثير من المشاكل: الصراعات الداخلية، والاقتتال الداخلي، والحروب المستمرة ما بينهما، وتدخل اليهود - في كثير من الحالات - لاستمرار هذه المشاكل فيما بين القبيلتين، ثم كذلك مشاكل اقتصادية، مشاكل اجتماعية... مشاكل كثيرة، لكن الإسلام كان يمثل حلاً لكل تلك المشاكل، ويصلح واقع الحياة كمبادئ، وقيم، وأخلاق، وشريعة، وحلال وحرام، ومواقف، الإسلام بمنظومته المتكاملة.. أين مشكلتنا اليوم كأمة مسلمة؟ أننا لم نعد نرتبط بالإسلام كمجموعة متكاملة، قطعناه أو صلاً، وحاولنا أن نبتعد عن الكثير منه، عن القضايا الأساسية فيه، عن الأسس المهمة جداً فيه.

عندما نعود إلى ذلك المجتمع الذي كان نواةً للأمة، مجتمعاً محدوداً على المستوى الجغرافي، عدة كيلو مترات (المدينة)، ومن حيث العدد البشري بالآلاف، تبدأ الدائرة بعدد بسيط من الناس، بالمئات، ثم بالآلاف، وتتسع هذه الدائرة يوماً بعد يوم، على ماذا أسس الرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - الأمة؟ على أسس مهمة، كان مبدأ التوحيد أساساً يُبنى عليه كل شيء، التوحيد لله - سبحانه وتعالى -، مبدأً بنيت عليه المبادئ الأخرى: القيم، الأخلاق، بنيت عليه مسيرة الحياة في الالتزامات العملية، في الحلال والحرام، كنظام، كمنهج للحياة، وكذلك أساساً للتوكل على الله، للثقة بالله، للاعتماد على الله - سبحانه وتعالى -، أساساً للاستقلال لهذه الأمة، أن تنشأ بعيداً عن التبعية لأولئك من الأقوام الأخرى التي هي بعيدة

عن هذا المنهج العظيم، لها توجهاتها، سياساتها، ثقافتها، أفكارها.. مجتمعاً تخلّى عن كل ما كان عليه من: خرافات، وأساطير، وعقائد ضالة، وأفكار خاطئة، ومفاهيم باطلة، وعادات سيئة، وتقاليد سيئة، وسلوكيات منحرفة... يتخلّى عن ذلك بكله، ويرتبط بهذا المنهج الإلهي؛ ليكون هو العقيدة، هو المبدأ، هو المنهج، هو النظام، هو الذي يعتمد عليه، ويبنى حياته من جديد على أساسه وعلى ضوء تعليماته، كان هذا هو الذي حدث، وذلك المجتمع الذي مثل النواة الأولى للأمة الإسلامية توجه أيضاً حاملاً لهذه الرسالة الإلهية، مؤمناً بها، ثابتاً عليها، ومناصرّاً ومجاهداً، يواجه الأعداء، يواجه التحديات والأخطار، على هذا الأساس، مجتمعاً اعتمد فيما بينه على الإخاء والتعاون، والولاء الإيماني الذي جعله مترابطاً على أساس هذه الدعوة، على أساس هذا الهدى، على أساس هذا الدين، على أساس هذا المنهج الإلهي العظيم، كما قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]، فتشكّل هذا المجتمع من المهاجرين الذين هاجروا بأموالهم وأنفسهم، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، تركوا ديارهم، تركوا مصالحهم من خلفهم، والبعض هاجر حتى وهو لا يمتلك شيئاً، خرج وقد ترك حتى كل أمواله؛ لم يستطع أن يخرج بها، وصل إلى المدينة وبذل نفسه في سبيل الله - سبحانه

وتعالى - .

ذلك المجتمع الذي تشكّل من المهاجرين والأنصار: على الإخاء، على الأخوة الإيمانية، على التعاون، على هذا الولاء الإيماني الذي يجعل منهم أمةً واحدة متآخية، متعاونة، متناصرة، ﴿وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، أمة جاهدت، خاضت العديد من المعارك، واجهت التحديات، ﴿لَكِنَّ الرِّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: الآية ٨٨]، أمة قبلت بالمبدأ الإلهي العظيم في أن تنهض بالمسؤولية، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ٧١]، فمع حمل تلك الأمة وذلك المجتمع الذي كان في نطاق جغرافي محدود، منطقة واحدة هي يثرب، منطقة صغيرة مقابل محيط واسع عربي وعالمي يختلف معه، ويناصبها العداء وليس فقط يختلف معها، ويحاربها، تدخل في حروب مع اليهود، وحروب مع النصارى، وحروب مع مشركي العرب، وتواجه التحديات والحصار الاقتصادي من هنا وهناك، لكن تلك التحديات والأخطار تقلصت شيئاً فشيئاً، وتلاشت شيئاً فشيئاً، وانهارت وتهاوت، وتعاظمت هذه الأمة المؤمنة واتسعت دائرتها، واستقوت شيئاً فشيئاً، حتى تغير الواقع بأكمله،

حتى تهاوت وانهارت تلك الكيانات الكبيرة المحاربة لهذه الرسالة .
مجتمع مكة الذي تحوّل من بعد هجرة النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - إلى مجتمع محارب للإسلام، ويجعل من مكة ومقدّساتها منطلقاً للحرب ضد الرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - وضد المسلمين، في السنة الثامنة فُتحت، وانتهى ذلك النفوذ وتلك القوة التي كان يعتمد عليها المشركون، وفشلت كل مؤامراتهم، ولاحظوا كم كانت خسارة قريش، وخسارة مجتمع مكة الذي حارب الرسول وحارب الإسلام؟ كانت خسارتهم فادحة، قدّموا الكثير والكثير من الأموال التي بذلوها في محاربة الإسلام، خسروا الكثير من رجالهم، من قياداتهم، قتلوا وجرحوا وهم يحاربون رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - والمسلمين، ثم في الأخير كل تلك الجهود التي بذلوها في محاربة الإسلام: من عمل دعائي، ونشاط واسع، وتسخير لعلاقاتهم ونفوذهم في القبائل العربية الأخرى، من جهود عسكرية وحروب قاموا بها ضد الرسول والمسلمين، من أموال كثيرة أنفقوها... تحوّل كلها حسرة، وباءت كل محاولاتهم وجهودهم بالفشل.

غيرهم كذلك من القبائل الأخرى، من الاتجاهات الأخرى الذين وقفوا ضد الإسلام، حتى تلك الدول الكبرى، الروم بكل إمكاناتهم، وهم كانوا - آنذاك - رقم واحد على مستوى الدول المتواجدة في الدنيا آنذاك، وفشلوا، في الأخير انهاروا هم أمام قوة الإسلام التي تعاظمت.

معنى هذا: أن رسالة الله الممثلة بالإسلام في حقيقته، وليس بالشكل المزيف والمحرف، في حقيقته التي يقدمها القرآن، والتي طبقها الرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - وتحرك بها، هو يمثل عامل خير، ومشروع خير ونجاح وفلاح وصلاح لحياة الناس، لحياة أي أمة تتمسك به، وتلتزم به، وتحرك على أساسه، مشروع حرية، استقلال، كرامة، قوة؛ لأنه مشروع عظيم في أصله، ولأنه مشروع يصلنا بالله - سبحانه وتعالى -، الله هو - جلَّ شأنه - الذي قال: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: الآية ٣٢]، (ولو كره الكافرون) يدخل تحتها: كل المساعي، والمحاولات، والمؤامرات، والمكائد، والأعمال، والجهود، التي يبذلونها لإطفاء هذا النور، يفشلون في ذلك كله.. تتلاشى، تنهار كل تلك المحاولات أمام أي أمة تتمسك بهذا النور، تهتدي به، تتحرك به، تسير في حياتها على أساسه.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾، هذا مضمون الرسالة الإلهية (الهدى، ودين الحق)، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾، هذا وعد من الله بالظهور، ويعني ذلك ظهور الأمة التي تتمسك بهذا الهدى كما هو، بعيداً عن الزيف والضلال المحسوب عليه وليس منه.. الأمة التي تتمسك بدين الحق، ولا تدخل فيه شيئاً من الباطل، ولا تراحمه بباطل تستورده من هنا أو هناك، أو يأتيها من هنا أو هناك، هذا الهدى ودين الحق إذا تمسكت به أمة فهو موعود من الله بالظهور، وتظهر الأمة التي تتمسك

به، «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ»، ويدخل في هذا الكره كل الحروب والمحاولات التي تسعى إلى منع ظهوره، التي تحاول أن تعمل على القضاء عليه، صلة بالله - سبحانه وتعالى -، عنصر خير، عنصر قوة مهم جداً، ولهذا يخطئ البعض من المسلمين في هذا الزمن عندما يبحثون عن بدائل للخلاص من هذا الواقع المليء بالمشاكل والأزمات، وتحت ضغط التحديات الخارجية، يبحثون عن بدائل من هنا أو هنا... لا. نحن عندما نعود إلى الإسلام كما هو في مشروعه العظيم، عندما نعود إلى القرآن الكريم عودةً صحيحة للاهتمام به كما هو، من دون تزييف، من دون تضليل، ونعود إلى الرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - في حركته بهذا القرآن، بهذا الهدى كما هو، بعيداً عن كل ما أتى من الزيف والتضليل المحسوب على الإسلام، المحسوب على الرسول باسم أنه من السنة، وهو مكذوب على الرسول - صلوات الله عليه وعلى آله -، عندما نأتي إلى الهدى، عندما نأتي إلى دين الحق، عندما نهتدي بهذا الهدى ونتحرك بهذا الدين الحق؛ نظهر، نتصر، نقوى في مواجهة كل التحديات، نعالج الكثير من مشاكلنا، يمثل الحل لكثير من مشاكلنا التي نعيشها كأمة مسلمة، هذا هو التوجه الصحيح.

رأينا كيف تجاوز النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - كل تلك المخاطر، بدأ بهذا المشروع العظيم وحيداً، واتسعت دائرة هذه الأمة شيئاً فشيئاً، واجه

التحديات المتنوعة، واجه الصعوبات المتعددة، واجه الأخطار الكثيرة، لكنه - في النهاية - انتصر، وكانت تجربة العرب في تمسكهم بهذه الرسالة واستجابتهم لها في عهد النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، والنجاح الهائل والكبير الذي تحقق في غضون سنوات محدودة، من حين هاجر النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - إلى السنة الثامنة (فُتِحَتْ مكة)، بعد فتح مكة اتسعت دائرة الانتشار لهذا الدين بشكلٍ عظيم، ثم في السنة الحادية عشرة - في أولها - توفي النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، بعد أن كان هذا الدين العظيم قد انتشر وعم الجزيرة العربية بأكملها، وأصبحت الأمة أمةً قوية، وأصبحت ذات حضور عالمي وإقليمي عظيم، سقطت أمامها كل الأمم الأخرى في مناهجها الكافرة والمستكبرة والمنحرفة والضالة، تجربة مهمة جدية بأن تعود الأمة إلى دراستها بجدية وتأمل، والاستفادة منها كما ينبغي.^(١)

الرسول بهر العالم بما حققه في فترة وجيزة

الرسول - صلوات الله عليه وآله - صنع إنجازاً عظيماً ينبهر منه الإنسان، لقد تمكن - من خلال ارتباطه بالله وحركته بتعليمات الله - سبحانه وتعالى - - من إحداث أكبر تغيير في بيئة معقدة وصعبة جداً، بيئة فوضوية، بيئة

(١) المحاضرة الثالثة الهجرة لعام ١٤٤١ هـ للسيد القائد عبد الملك بدر الدين الحوثي رضوان الله عليه.

معاندة، بيئة شرسة (هذا الواقع العربي) وبيئة منفلتة، «ما عندها انضباط لا لشرع ولا لنظم ولا لشيء أبداً»، بيئة جاهلة يصعب تفهيمها، فتح الله به آذاناً صُمًّا، وأبصرت به أعين - كذلك - عمياً، وفتح الله به أفئدة غلفاً، أي: أمر صعب أن تُفهم أولئك الناس، حقائق كثيرة جداً، أمة مليئة بالخرافات والأباطيل، والموروث الجاهلي الذي أصبح عقائد كبيرة، الأصنام عندهم مقدسة، الحديث عنها مباشرة يفتح مشكلة، يفتح مشكلة عندما تتحدث عن الأصنام هذه الآلهة، هذا يفتح مباشرة معهم مشكلة كبيرة.

أي: واقع ساخن، وصعب، ومعقد، يصعب تفهيمه بحقائق كثيرة جداً، الحقائق التي امتلأت بها آيات القرآن، عن الكون والحياة ومعرفة الله والمبدأ والمعاد، و...، وصولاً إلى التغيير للعادات والتقاليد ونظام الحياة وفرض التزامات ونظم إسلامية، تضبط بها الحياة لأمة فوضوية ليست متعودة على ذلك نهائياً، فتزاح من حياتها عقائد كانت مقدسة لديها وكانت راسخة، وعادات وتقاليد كانت معتادة وموروثة، و متمسك بها جداً، والمساس بها يفتح حروباً وصراعات ومشاكل وعداء شديداً، وتواجه فيها زعامات وتكتلات قبلية، وتواجه أيضاً فيها وراءها كيانات دولية، فكان واقعاً كبيراً وعجيباً.

صنع إنجازاً عظيماً، تغير الواقع العربي خلال فترة عشرين عاماً غير فيه واقع الجزيرة العربية، تلك العقائد انتهت، تبدلت بنور الإسلام، تلك العادات والتقاليد انتهت، المجتمع الذي كان مجتمعاً فوضوياً توحد تحت

راية الإسلام، وأصبح منضبطاً لتعاليم الله - سبحانه وتعالى -، وخاضعاً للإسلام، ولحكم الإسلام، ولأمر الإسلام وأمر رسول الله صلوات عليه وعلى آله.

حسم صراعاته العسكرية بأكثر من ثمانين ما بين سرية وغزوة، منها: غزوات كبيرة، ومواقف كبيرة، بدؤها (بدر) وختمها (حنين) بالنسبة للواقع العربي، مع اليهود كذلك: مع بني النضير، مع بني قينقاع، مع بني قريظة، مع خيبر، مع يهود فدك، مع يهود تيماء، مع يهود وادي القرى، أيضاً بدأت حالة الصراع مع الروم، مع النصاري، كانت واقعة مؤتة، ثم بعدها كذلك غزوة تبوك، ولا يسعنا الدخول في التفاصيل.

صارع كل القوى التي تكالبت واستنفرت كل إمكاناتها الإعلامية والعسكرية، وكل أنشطتها وقدراتها المادية والبشرية في مواجهة هذا الإسلام، لكن نجح رسول الله صلوات عليه وعلى آله في مهمته الرسالية أعظم نجاح بأقل التكاليف.

لاحظوا مثلاً لو أن رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - عندما قال له جبريل مثلاً: مهمتك عالمية، أنت رسول للعالمين، قدّم هذا الدين إلى كل البشر، أوصل رسالة الله إلى العباد، أقم للإسلام كيئاً... إلخ، يقول: «لكن هذا مشروع كبير ويحتاج ميزانية ضخمة، ويحتاج إمكانات هائلة، ويحتاج أعداد كبيرة من البشر! لا، لا ليس لديه لا شرط ولا قيد، بدأ

يتحرك بمفرده»، ثم بالقلة القليلة من المؤمنين معه، ثم اتسعت هذه الدائرة شيئاً فشيئاً، بإمكانات بسيطة ومتواضعة.

لم يحتاج إلى دعم أجنبي من قوى ومكونات ليست ضمن الكيان الإسلامي، أطراف أخرى غير مسلمة، مثلاً يستمد من الفرس أو من الروم أو من بعض الوثنيين العرب، أو يستفيد من صراعات هنا أو هناك ليعتمد عليها وهي من خارج دائرة الإسلام، أبداً.

يعتمد على التمويل الإسلامي، فيمن قد أسلم من إمكاناتهم المتواضعة جداً، بإمكانات متواضعة، لم يحتاج مثلاً أن يقول الله - جلّ شأنه - : «أنا أريد منك خمسة جبال تحولها لي ذهب، تكون ميزانية لي، حتى أستطيع أن أعمل»، لا. تحرك بالمتاح وبالممكن، وعلم المسلمين ورباهم على هذا الأساس، أن يتحركوا بأنفسهم وأموالهم وقدراتهم وطاقاتهم، وأن يثقوا بالله - سبحانه وتعالى -، فهو سيبارك فيهم، وفي قدراتهم، وفي طاقتهم، وسينميهم وينمي ما معهم، ويزيدهم خيراً، ويبارك لهم، ويحثهم بالإعداد لما استطاعوا من قوة، ويعلمهم الحكمة ويزكيهم، ويظهر أخلاقهم.

طهر الساحة العربية من تلك العقائد والخرافات، من أرجاس الجاهلية، «فمنعت الفواحش، وطهرت الساحة العامة، وتحسن الوضع الاقتصادي للأمة، وانتشر نور الإسلام وعم الجزيرة العربية، لينشئ كياناً عظيماً متميزاً، وبأقل كلفة من الخسائر البشرية، هذا شيء عجيب، هذا معجزة.

الرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - مع تلك الحروب، مع الصراع المريع والشديد جدًا مع الذين حاربوه من العرب وحاربوه من اليهود وحاربوه من النصارى، يُحصي ويحصر بعض المؤرخين أن عدد القتلى في مجموع كل تلك الحروب إلى حين انتهت، إلى حين وفاة رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله - من أصحابه من المسلمين ومن أعدائه من الكافرين بكل فئاتهم - لم يكن بأكثر من ألف وأربعمائة قتيل، هذه قصة عجيبة جدًا، تحديات كبيرة، أعداء شرسين جدًا وبأقل كلفة من الخسائر البشرية، وأقل كلفة من التضحيات والخسائر المادية.

وحقق إنجازًا استثنائيًا وصنع تغييرًا جذريًا، الأشياء التي كانت عادات ولم يكن أحد يتخيل أن يستطيع العربي أن يتركها مثل شرب الخمر مثلاً، تركوه، وأشياء كثيرة، تغيير جوهرى وجذري كبير، وتوجيه نحو أهداف سامية ونحو مبادئ عظيمة.

مع أنه واجه صعوبات كبيرة حتى في الواقع الداخلي كحركة المنافقين، حركة الذين في قلوبهم مرض، ضِعاف الإيمان الذين كانوا يترددون، الإساءات التي كان يعاني منها، قلة الأدب من كثير؛ حتى من المسلمين في التعامل معه، لكنه كان أكبر من كل تلك العوائق والتحديات؛ لأنه كبر بهذا الدين الذي أتى به فكان أعظم من آمن به، وجسده، وتأثر به، وتحرك به.^(١)

(١) من المحاضرة الخامسة للمولد ١٤٣٩ هـ للسيد القائد عبد الملك بدر الدين الحوثي رضوان الله عليه.

ما الذي صنّعه الرسالة المحمدية على مستوى العالم؟

الرسالة الإلهية - من خلال حركة النبي - صلوات الله عليه وعليّ آله - بها بعد مبعثه الشريف هاديًا ومعلمًا ومربيًا، مجاهدًا وصابرًا ومضحياً - غيرت الواقع بكله، على الجزيرة العربية بأكملها، لتمتد آثار ذلك التغيير وبمستويات متفاوتة إلى أرجاء الدنيا بأكملها، والأمة التي كانت متفرقة وجاهلة وظلامية وأخافها في يوم من الأيام فيلٌ واحد في مقدمة جيش.. تغيير واقّعها بعد إسلامها بعد أن تنورت بالنور، واستبصرت بالهدى، وزكت بالقرآن وبترية الرسول - صلوات الله عليه وعليّ آله - ؛ فواجهت جيوش الإمبراطوريات والدول الكبرى المستكبرة، ولم ترهب جيوشها التي كانت تأتي بأعداد كثيرة من الفيلة، كانوا يتوقعون أن يخاف المسلمون مجدداً إذا شاهدوا الفيلة كما خافوا قبل إسلامهم من فيل واحد، فأتوا بالكثير من الفيلة فلم تخف، لم يخف المسلمون فيما بعد، وقويت عليها بقوة الحق، وانتصرت بنصر الله، حينما تحولت إلى أمة حملت أعظم مشروع وأقدس قضية، وحينما تحولت إلى أمل لكل المستضعفين في الدنيا غير مؤطرة بعنوان جغرافي ولا بلون ولا بعرق ولا بقومية بل بخطاب القرآن لكل الناس الذي يقول فيه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾.

لقد استطاع الرسول صلوات الله عليه وعليّ آله بحركته بالقرآن وبها منحه الله تعالى من مؤهلات عالية وكمال عظيم، وبتأييد الله تعالى أن يصنع تغييراً

مفصليًا في التاريخ، وأن يؤسس لعهد جديد ختم به رسالات الله تعالى إلى الأنبياء، ومن معجزات الرسالة الإلهية أن رافعتها وحملتها وأتباعها وأنصارها والمنتصرين بها هم المستضعفون وليس المستكبرون.

لم يكن انتصار الرسالة الإلهية مرهونا بقوى الاستكبار، بل كانوا هم على الدوام أعداءها والمختلفين معها لأنها تُناقض أطماعهم وطغيانهم واستعبادهم للبشرية، بل كان المستضعفون هم الذين يؤمنون بها ويعتزون بها ويقوون بها ويتغير واقعهم بها بعد أن يغيروا ما بأنفسهم.

الرسالة الإلهية هي المشروع الوحيد القادر على إحداث التغيير الحقيقي للواقع البشري

والرسالة الإلهية هي المشروع الوحيد - ليس هناك أي مشروع آخر - هي المشروع الوحيد القادر على إحداث التغيير الحقيقي للواقع البشري، لتقديم الحلول الواقعية للبشر؛ لأنها مشروع شامل يتجه للإنسان نفسه، فيغير ما بنفسه من ظلمة وذنس، فإذا صلح الإنسان صلحت الحياة بأكملها وصلح واقعه؛ لأنها مشروع يصنع الوعي ويزكي النفس ويأخذ بيد الإنسان في الحياة في الطريق السوي ويهدي للتي هي أقوم قال الله تعالى ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ

عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ
اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ [الحديد: ٩].

ولأنه مشروع الله لكل عباده ليس من قوم حسبوا حساب أنفسهم
وحساب مصالحهم على حساب قوم آخرين، ولا لعرق على عرق، ولا
للون على لون، ولا لقومية على قومية، بل هو الكلمة السواء التي يمكن
أن يلتقي عليها جميع البشر، وهو المشروع العالمي الحقيقي الصالح القائم
على العدل، والعدل دعامة أساسية في بنيانه، قال الله تعالى ﴿قُلْ أَمَرَ
رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا
قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥].

ثم هو حجة الله تعالى على عباده لأنه هو الذي خلقهم، هو ربهم،
هو ملكهم وإلههم الحق وإليه مصيرهم وحسابهم وجزاؤهم، وقد قدم
نداء إليهم منذ بداية وجودهم على هذه الأرض، فقال تعالى مخبراً بندائه
 واحتجاجه

﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ خطاب الله إلى البشر في كل الأجيال التي قد خلت
﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي
فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ • وَالَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥-٣٦]، ولذلك فلا خلاص اليوم للبشرية بأي بديل

عن رسالة الله تعالى، ولا حل يغير الواقع بكله إلا الانفتاح على الرسالة الإلهية، على رسالة الله ونوره، ولا صلاح لآخر الأمة إلا بما صلح به أولها.

قوى الاستكبار اليوم وعلى رأسها أمريكا وإسرائيل تفاقم مشاكل البشرية

لقد ثبت بأن قوى الاستكبار اليوم وعلى رأسها أمريكا وإسرائيل تفاقم مشاكل البشرية، وتفسد في الأرض، وتعتدي على الشعوب، وتنهب الخيرات، وتصنع الحروب والأزمات، ولا تقدم للبشرية إلا المزيد من المآسي والنكبات، وزاد من سوء الأمر في عالمنا الإسلامي خصوصاً في المنطقة العربية: التبعية العمياء من بعض الدول التي تقدم نفسها على أنها تمثل الإسلام كما هو حال النظام السعودي والإماراتي المنافقين وأذيلهما الذين جعلوا من أنفسهم أداة الشر لتنفيذ مؤامرات الأعداء وهدم كيان الأمة من الداخل، وهم بلا شك امتداد ظلامي ظالم لقوى الاستكبار، ويمثلون حالة الانحراف والتحريف مع الأمم التي اتلفت واتفقت معها وتشابهت في حالة الانحراف والتحريف في شريعة موسى وشريعة عيسى

- عليهما السلام - .

التبعية لأعداء الأمة من المستكبرين هي خروج عن الحق

إن القرآن الكريم يجعل من التبعية لأعداء الأمة من المستكبرين خروجًا عن الحق وزيفًا عن الهدى وخيانة للأمة وهو يقول: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، وإن أكبر معاناة تعانيها الأمة اليوم هي هذه التبعية التي مثلت حالة اختراق كبير ومؤذ ومخرب في داخل الأمة، ويجب أن تحذر منها الأمة، وأن تتحصن منها بالوعي، وأن تواجه مؤامراتها ومكائدها بكامل المسؤولية، ومآل أولئك الخونة المنحرفون: مآلهم إلى الخسران مصداقًا للوعد الإلهي في سورة المائدة.

الأمة المعنية في مواجهة التحديات بالاعتصام بحبل الله

الأمة وهي في مواجهة التحديات الداخلية مع قوى النفاق، والخارجية من قوى الطاغوت والاستكبار المعنية بالاعتصام بالله - سبحانه وتعالى -، والارتباط الوثيق برسالته، فبها تقوى، وبتعاليمها تفلح، وبالتمسك بها تنتصر؛ لأنها رسالة في مضمونها من التعاليم والتوجيهات والحكمة عناصر القوة، عناصر القوة ذاتية فيها، وبالتمسك بها تحظى الأمة بنصر الله وعونه قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وقد كان لشعبنا اليمني الشرف الكبير بدءًا بالأنصار في إيمانه وجهاده وتفاعله مع رسالة الله تعالى حتى نال وسام الشرف الكبير فيما روي عن رسول الله - صلوات الله عليه وعلى آله - بشأنه ((الإيمان يمان والحكمة يمانية))، وبهذا الإيمان كان ثابتًا ومتناسكًا في مواجهة العدوان الأمريكي السعودي الإماراتي بالرغم من حجم المعاناة نتيجة القتل والحصار والتدمير، وبوعيه لم يتأثر بأبواق التضليل.

وما عدا الخونة والمنافقين والمرترقة فإن جماهير شعبنا بعظيم الصبر والصمود والعطاء قدمت إلى العالم أجمل صورة عن عظمة قيم الإسلام وأثر الإيمان، فأسر الشهداء والجرحى، وأبطال الميدان من الجيش واللجان الشعبية، وجماهير الشعب من كل أطرافه أثبتوا للجميع أن القوة هي قوة المبادئ وقوة القيم والأخلاق وقوة الاعتماد على الله والتوكل عليه.

ولذلك فإن شعبنا اليوم وبميثاق الإسلام الذي قدمه في صدر الإسلام لرسول الله محمد - صلوات الله عليه وعلى آله - إيمانًا ونصرةً وإيثارًا؛ يؤكد اليوم بالقوة وبالفعل: الاستمرار على النهج والمواصلة للسير في الطريق والسعي المستمر للاستبصار والارتقاء الإيماني إن شاء الله تعالى، ونؤكد على أن خيار شعبنا المسلم العزيز في مواجهة هذا العدوان الإجرامي الوحشي الذي يقتل البشر ويحتل الأرض وينتهك الحرمات وينشر الفرقة ويحاصر الشعب في قوته ومعيشتته ويستهدفه في مقدراته ومصالحه هو الصمود والثبات والمواجهة.

فلا وهن ولا ذل ولا استسلام، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، فنحن شعب عزيز بعزة الإيمان، والله العزة ولسوله وللمؤمنين، وطالما استمر هذا العدوان فلن نألوا جهداً في التصدي له بكل عزم وجد، وبالتوكل على الله تعالى وبثقتنا به وبوعده لنا بالنصر.

ولذلك فالجميع في بلدنا معنيون بحكم المسؤولية بالحفاظ على وحدة الصف الداخلي، وحشد كل الطاقات والإمكانات للتصدي لهذا العدوان، لا يخرج عن هذه الأولوية ويتجاهل هذا الجانب إلا مارق متبلد الإحساس عديم الوعي، مُفَرِّغ ومفلس من الشعور الإنساني.^(١)

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

نسأل الله أن يرحم شهداءنا وأن يشفي جرحانا وأن يفرج عن أسرانا، وأن يعجل بفرجه على شعبنا وصى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.



(١) خطاب المولد لعام ١٤٣٨ هـ للسيد القائد عبد الملك بدر الدين الحوثي رضوان الله عليه.

المحتويات

- ٤ من المهم لكل مسلم أن يسعى إلى معرفة الرسول
- ٥ شعبنا يتميز بتفاعله الكبير مع ذكرى المولد
- ٦ الاحتفال بالمولد النبوي الشريف من أهم وسائل التعرف على هذا النبي العظيم
- ٩ مكة المكرمة
- ٩ نبي الله إبراهيم ورفع قواعد البيت الحرام
- ١٤ حالة العالم قبل مولد الرسول
- ١٦ محاولة هدم البيت الحرام:
- ١٨ رحلة مع الرسول والرسالة
- ١٩ المرحلة الأولى: من الولادة حتى البعثة بالرسالة
- ١٩ المولد المبارك
- ١٩ نسبه الشريف:
- ٢١ النشأة المباركة:
- ٢٢ عبد المطلب وانتظاره لهذا المولود:
- ٢٥ سنة الله مع أنبيائه:
- ٢٦ الرعاية التي أحيط بها الرسول:
- ٢٨ فاطمة بنت أسد ودورها العظيم:
- ٢٩ وفاة جده عبد المطلب وكفالة أبي طالب:
- ٣٠ ما حظي به رسول الله من الرعاية
- ٣٠ الرعاية الإلهية التي هيأها الله لنبيه
- ٣٢ في مرحلة شبابه
- ٣٣ الصادق الأمين:
- ٣٤ زواجه من خديجة:

٣٦ كان رسول الله كثير التأمل في الكون:

٣٧ إسهامه في بناء الكعبة:

٣٨ الرسول كان محاطاً بالرعاية الإلهية:

٣٩ المرحلة الثانية: البعثة النبوية

٣٩ طريقة نزول الوحي:

٤٢ أول ما نزل على الرسول هي سورة الفاتحة:

٤٣ التحرك بالدعوة:

٤٤ مكة أول منطقة تحتضن هذا النشاط الرسالي:

٤٨ قريش في مواجهة الدعوة:

٤٨ الهجرة إلى الحبشة:

٤٩ العوامل الإيجابية والسلبية لمجتمع مكة

٥٣ لم يحظ مجتمع مكة بشرف حمل الرسالة:

العوامل السلبية في تلك البيئة التي حالت دون نهوضه

٥٤ بالمسؤولية:

٦١ العوامل الإيجابية التي ساعدت بأن تكون مكة بداية المشوار

٦٤ تحرك قريش بالدعايات ضد رسول الله:

٧٤ المرحلة الثالثة: العهد المدني

٧٤ أولاً: المجتمع المدني

٧٤ الأوس والخزرج وسبب وجودهما:

٧٦ بعض مميزات المجتمع المدني:

٧٩ الأنصار نالوا الشرف العظيم:

٨٠ لم تكن العوائق الموجودة في مكة متوفرة في المدينة:

٨١ ثانياً: أحداث العهد المدني

٨٢ الصراع المسلح:

٨٣ ما الذي تحقق للبشرية؟

٩٣ الرسول بهر العالم بما حققه في فترة وجيزة

٩٨ ما الذي صنعه الرسالة المحمدية على مستوى العالم؟

الرسالة الإلهية هي المشروع الوحيد القادر على إحداث التغيير الحقيقي للواقع
البشري ٩٩

١٠١ قوى الاستكبار اليوم وعلى رأسها أمريكا وإسرائيل تفاقم مشاكل البشرية ...

١٠٢ التبعية لأعداء الأمة من المستكبرين هي خروج عن الحق

١٠٢ الأمة معنية في مواجهة التحديات بالاعتصام بحبل الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ